محمد قشتيليو

محنة الموريسكوس في إسبانيا



الطبعة الثانية 1999

رقم الإيداع القانوني

1999 / 873

مطابع الشويخ «ديسبريس» ـ 83 ، شارع شكيب أرسلان - الهاتف : 09 50 96 (09) تطـوان

محمد قشتيليو

محنة الموريسكوس في اسبانيا

إلى كل من عضه الدهر بنابه

وطـــرد بغيـــر حـــق مـــن أرضه

أهدي هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نقدم للقارئ الكريم الطبعة الثانية من هذا الكتاب نظرا للطلب الذي كثر عليه وخاصة من طلاب العلم والبحث بالجامعات، وكذا من بعض المكتبات، لذا عملنا كل ما في المستطاع لإعادة طبعه بعد تنقيحه وإثبات بعض مصادر الصور الموجودة على صفحاته تتميما للفائدة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ما لاقاه الكتاب في طبعته الأولى من تشجيع وإقبال من طرف علماء وبُحاث أجلاء كتبوا عنه في الصحف والمجلات، أذكر منهم المؤرخ الشهير عبد الله عنان حيث نشر مقالا في الموضوع على صفحات مجلة العربي الصادرة في الكويت والعالم الفذ سيدي عبد الله كنون رحمة الله عليه، على صفحات جريدة "الميثاق" لسان رابطة علماء المغرب، والمجلة العربية التي تصدر بالرياض في المملكة السعودية، ومجلة دعوة الحق، وجريدة الأنباء، وجريدة العلم، إلى غير ذلك. وعليه فإلى الجميع شكرنا الخالص، كما أغتنم هذه الفرصة لأتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدنا وعضدنا في إخراج الطبعة الثانية أذكر منهم الأستاذ مالك بنونة، وكذلك صهري الكريم الدكتور الصيدلي مصطفى الزباخ على سهره على تنقيح وطبع الكتاب، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا وهو الموفق للصواب.

محمد قشتيليو



محنة الموريسكوس في اسپانيا

هذا كتاب في موضوع مهم قل من تعرض له من الباحثين في تاريخ اسبانيا المسلمة أو افرده بالتأليف، وعهدنا بصاحبه الأستاذ محمد قشتيليو يبحث وينقب عن مراجعه وما يتعلق به منذ أن كان طالبا يدرس باسبانيا في الأربعينيات وكنا نشجعه على إنجازه لسد الفراغ في موضوعه الى أن كتب له ان يرى النور في هذه الأيام ويتناول الكتاب كما جاء في مقدمته حياة أواخر المسلمين بالأندلس بعد انتهاء حكمهم فيها بسقوط مملكة غرناطة في يناير 1492، وما عاناه الموريسكوس من التشريد والاضطهاد أيام حكم الملوك الاسبان، وما كان لطردهم من الأثر السيء بخاصة على الحياة الاقتصادية في البلاد الإسبانية لما كان عليه الموريسكوس أي المسلمون الأندلسيون الذين اثروا البقاء تحت حكم المسيحيين من الجد والنشاط، بحيث لم يغادروا البلاد تحت الضغط والتعصب الديني حتى عم الإفلاس والركود الميدان الاقتصادي ببلاد اسبانيا، فضلا عن الميادين الأخرى العلمية والحضارية. ان الخدمة التي قدمها السيد قشتيليو لتاريخ العرب في اسبانيا بهذا الكتاب جليلة جدا يشكر عليها جزيل الشكر. يقع الكتاب في 120 صفحة من الحجم الكبير وطباعته نقية.

عبد الله كنون

جريدة "الميثاق" تصدرها رابطة علماء المغرب عدد 350 فاتح جمادى الثانية عام 1401 / 05 أبريل 1981.

لماذا تهمل الجامعات تاريخ الأندلس

محمد عبد الله عنان

وقع في يدي خلال وجودي بالمغرب، كتاب من نوع خاص عنوانه «محنة الموريسكوس في اسبانيا» (سنة 1980) لمؤلفه الأستاذ محمد قشتيليو، والموريسكوس هم بقية الأمة الأندلسية المغلوبة، الذين أرغموا على التنصر ثمنا لبقائهم في الوطن القديم، وأطلق لإسبان عليهم هذا الاسم Los Moriscos، اعني «العرب الأصاغر»، ونفضل نحن ان نسميهم الموريسكيين أو «العرب المتنصرين». ومؤلف هذا الكتاب حسبما يخبرنا في كتابه هو مغربي من مدينة القصر الكبير ومن أصل أندلسي أو بعبارة أخرى من أصل موريسكي حسبما يدل على ذلك اسمه. وقد كانت ثغور المغرب الشمالية، ولاسيما مدينة تطوان، والمناطق القريبة منها جنوبا وغربا حتى القصر الكبير وغيره، منزل أعداد كبيرة من المهاجرين الاندلسيين، قبل سقوط غرناطة النهائي في يد الاسبان في سنة 1494، أو بعده حينما تحولت بقايا الأمة الأندلسية، بعد التنصر المفروض الى طائفة الموريسكيّين. وقد تلقى المؤلف في مدريد تربية اسبانية، ونحن نعرف انه مازال حتى اليوم في مدينة تطوان، وفي منطقتها، عدد كبير من الأسر الموريسكية المحترمة، ومنها الكثير ممن لا يزالون يحملون أسماءهم الموريسكية القديمة، مثل ملينة ومدينة، ومرتين، ومراريش (موراليس) والطريس، وبرمنجو، ومرشيتة وقشتيليو، وركينة، وراغون وغيرها.

ويقدم إلينا الأستاذ قشتيليو في كتابه عرضا وافيا لحياة الأمة الموريسكية، وما توالى عليها منذ سقوط غرناطة في سنة 1494 حتى نفيها النهائي من اسبانيا في سنة 1609 من ضروب الاضطهاد والمطاردات والمحن المروعة. ويشرح لنا كذلك موقف المدجنين الأندلسيين في شرقي الأندلس، وهم الذين سبقوا الموريسكيين في تحديد أوضاعهم مع الملوك النصارى، عقب سقوط أوطانهم في ايدي الاسبان، وكانوا لظروفهم واعتماد النبلاء والسادة على جهودهم وأعمالهم في الزراعة والصناعة، اسعد حظا واقل شقاء من الموريسكيين في منطقة غرناطة. وهو يعتمد قبل كل شيء على المصادر الاسبانية، ولاسيما مارمول فيما كتبه عن ثورة الموريسكيين الكبرى، وفلوريثيو خانير في كتابه «الوضع الاجتماعي للموريسكيين»، وهو ينقل إلينا معظم الأسماء التاريخية والجغرافية بصورها الاسبانية، ولا يقدم إلينا منها سوى القليل بأسمائها العربية، ويقدم الينا في اسلوب متواضع ولكنه مؤثر بالرغم من ذلك، لروعة الأحداث والآلام التي يقصها علينا.

ومع ذلك فان صدور هذا الكتاب في موضوعه، يعتبر حدثا أدبيا وتاريخيا. فانه لم يصدر في هذا الموضوع باللغة العربية في العصر الأخير سوى كتابي «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، منذ نحو ثلاثين عاما وظهرت طبعته الثالثة في سنة 1966، والمصادر الاسبانية هي وحدها عمدتنا في هذا الموضوع، لأنه بالرغم من كثرة ما كتب بالعربية عن تاريخ الأندلس، وعن آدابها وحضارتها، فانه لم يكتب عن تاريخ الموريسكيين سوى القليل، وهو عبارة عن شذور أوردها الينا المقري في كتابه "ازهار الرياض في أخبار عياض" وعن فصل كتبه محمد بن عبد الرفيع الأندلسي الموريسكي عن أحوال الموريسكيين ضمن

مخطوط بالمكتبة الكتانية (مكتبة الرباط العامة) عنوانه : "الأنوار النبوية في آباء خير البرية". وأما المؤرخون الإسبان فانهم تتبعوا تاريخ الموريسكيين، منذ سقوط غرناطة حتى نهايته بصدور قرار النفي، ومن بعد ذلك في مؤلفات عديدة متوالية تاريخية ووصفية ونقدية. وقد كانت مأساة الموريسكيين تجري تحت أعينهم تباعا، ولديهم كل ما يريدون الوقوف عليه من الأحداث والوثائق والقرارات الملكية. ومن ثم فانه يوجد لدينا كل ما يجب الرجوع اليه من مختلف المصادر ومنها مصادر كثيرة تسبغ عطفها على الموريسكيين وتأييدها لقضيتهم ونقد السياسة الإسبانية في اضطهادهم ومطاردتهم، وتشيد بجميل خلافهم وبراعتهم بالرغم من محنهم المتوالية. ومن ثم فان كتابا يقدم الينا قصة الموريسكيين ملخصة عن هذه المصادر الاسبانية يعتبر تصويرا حسنا لأدوارها واسبابها ونتائجها.

ولقد قلنا ان صدور هذا الكتاب يعتبر حدثا أدبيا وتاريخيا، لأنه يعالج موضوعا أندلسيا قلما عولج بالعربية. وهذا هو الأمر الذي نريد أن نلفت اليه النظر، فان تاريخ الأندلس، وجغرافيتها وآدابها وجمال مدنها، ومحاسن أهلها، وحضارة الأندلس، وروائع علومها وآدابها: كل هذه قد لقيت من الأقلام العربية أعظم الجهود، وعولجت بالعرض والدرس على أوسع نطاق، وفي سائر العصور، ولكن الموضوع الجوهري، وهو موضوع سقوط الأندلس، لم يلتفت إليه البحث، ولم تتناوله الأقلام والبحوث الغربية باية صورة جدية، وكذلك لم تتناوله الأقلام العربية باية صورة وافية، وهذا مما يدعو الى اشد الأسف. فكثيرا ما نتمثل بمحنة الأندلس ونهايتها المحزنة. ولكنا لم نبذل اية جهود للبحث عن أسباب هذه النهاية، التي تعتبر أعظم مآسي التاريخ الإسلامي ومآسي التاريخ الحديث.

لقد عرض علينا المقري في "نفح الطيب" صورا من أروع وأمتع الصور عن جغرافية الأندلس، وعن حواضرها التالدة، قرطبة واشبيلية وبلنسية، ومرسية، وطليطلة وغيرها وعن مروجها وحدائقها، وعن أهلها وشهوبها ومحاسنهم. وعن آدابها وشعرها، حتى ليكاد الإنسان يعتقد أن المقري قد عاش في تلك الوديان والمروج والحواضر العظيمة والأمر بالعكس فان المقري بالرغم من كونه قد عاش بالمغرب، في الضفة الاخرى من بحر الأندلس، لم ير الأندلس، ولم يحاول ان يراها، ولم يكن قد بقي من جنة الأندلس عندئذ سوى الذكريات المؤلمة، وسوى العرب المتنصرين (الموريسكيين) يعيشون محنتهم الغامرة، ولم يحاول المقري، بعد ان حدثنا طويلا عن جنة الأندلس، ان يحدثنا عن اسباب محنتها وسقوطها. ولم يحاول أي كاتب أو مؤرخ آخر ممن كتبوا عن الأندلس وعن تاريخها العظيم، أن يقترب من هذا البحث. واما الذين كتبوا عن تاريخ الأندلس من كتاب الغرب أمثال كوندي ودوزي وسكوت ولاين بول، وغيرهم، فانهم تناولوا هذا الموضوع بصفة عابرة، ولم يحدثنا أحد منهم عن أسباب سقوط الأندلس بصورة واضحة مقنعة. واما نحن الكتاب المشارقة، فلم نحاول أن نعالج هذا الموضوع باية صورة ومازالت جهودنا تقف عند كتابة التاريخ الأندلسي والآداب الأندلسية.

وانه لمن المؤسف ألا يوجد في اية جامعة من جامعاتنا كرسي خاص لتاريخ الأندلس وحضارتها، وان دراسة هذا الفرع توضع دائما تحت كرسي التاريخ الإسلامي أو تحت كرسي تاريخ العصور الوسطى. ولعل هذا القصور في العناية بتاريخ الأندلس وحضارتها، لا يمكن أن يؤدي الى تهيئة أكابر العلماء المختصين في تاريخ الأندلس، الذين يمكن أن يعهد اليهم بالدراسات العميقة المتخصصة، التي يمكن أن نستخرج في ظلها

النتائج والحقائق، العلمية المرغوبة.

ان مثل هذا البحث في عوامل سقوط الأندلس وظروفها، جدير بان يملأ كتبنا، وان يستغرق أعواما، وهو موضوع غزير المادة، غني بالأصول والتفاصيل. والمهم هو ان نبدأ المحاولة، والمراجع لدينا وفيرة بين مطبوع ومخطوط، ووثائق تاريخية لا نهاية لها، تشمل سائر عصور التاريخ الأندلسي.

ولما كانت هذه المهمة العلمية الخطيرة تفوق طاقة المجهود الشخصي، فانه من الممكن أن تندب لها لجنة خاصة من العلماء المتخصصين في تاريخ المغرب والأندلس، تعمل تحت رعاية احدى الهيئات العلمية الجامعية تتولى امدادها بالاعتمادات والبرامج اللازمة. وتنظيم رحلات اعضائها الى المغرب واسبانيا للقيام هنالك ببحوثها ودراستها العلمية والطبوغرافية.

ويجب أن يكون لهذه اللجنة طابع دولي عربي اسلامي، وان تقوم بمهمتها العلمية، لحساب الأمم العربية والإسلامية، التي كانت الأندلس المسلمة خير ممثل لها لدى الأمم الغربية والنصرانية، والتي كانت حضارتها الزاهرة أغزر مستقى لأمم الغرب، وعالم العصور الوسطى. ومازالت أمم الغرب تشيد حتى اليوم بدينها العلمي والحضاري للأمة الأندلسية، ومازالت أسماء ابن زهر وابن رشد، وابن طفيل وغيرهم من أقطاب الحضارة والعلوم الأندلسية تثير لديهم أعظم الاجلال والتقدير.

هـذا الكتـاب

برزت فكرة هذا الكتاب في الأربعينات وأنجز تأليفه في آخرها ونشرت مقالات منه في أول الخمسينات على صفحات مجلة "الأنيس" التي كانت تصدر بتطوان اذ ذاك، وفي مجلة "الشرق" التي كانت تصدر بسان پاولو بالبرازيل، كما نشر مقالا منه في أول عدد لمجلة "تطوان" التي كان يصدرها معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان، غير انه لم ير النور إلا في هذه سنة 1980 ولكل اجل كتاب.

يتناول هذا الكتاب حياة أواخر المسلمين بالأندلس بعد انتهاء حكمهم في ثاني يناير 1492، ولم نهتم بالكلام عما قبل هذه الحقبة لعلمنا انها بوشرت من طرف عدد غير قليل من المؤلفين، وهذه الفترة في حد ذاتها لا تتعدى قرنا والربع من الزمن قضاه الموريسكوس في حالة يرثى لها من التشريد والاضطهاد ايام حكم الملوك الاسبان الذين تعاقبوا على عرش اسبانيا في هذه الفترة، وقد قاموا بعدة محاولات لإعادة ملكهم من جديد بتنصيب أشخاص من سلالة عربية إسلامية كملوك عليهم، ولكن محاولاتهم كان مصيرها دائما الفشل، وقد كانت اسبانيا في ايامهم مزدهرة اقتصاديا، لذا كان بعض اشراف النصارى يعارضون في طردهم واخراجهم نظرا لما يعلمونه عنهم من الكد والنشاط في ميداني الزراعة والتجارة وغيرهما وكانوا يعلمون ان بذهابهم ستصبح البلاد فقيرة وسيعمها الإفلاس والركود في النشاط الاقتصادي، وقد كان ما كان عند مغادرتهم البلاد. ونرجو ان نكون قد سددنا ثغرة من ثغرات هذه الفترة من تاريخ هذه الأمة، فإن وفقنا فذلك فضل الله، وإلا فحسبنا الاجتهاد، والنية الحسنة، والله الموفق للصواب.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

إن الحافز الى العناية بهذا الموضوع وتحضير بحث فيه، هو أنه عندما كنت طالبا ومدرسا مساعدا في نفس الوقت للغة العربية بكلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد، كان رفقائي الطلبة الاسبان يمطرونني بكثير من الأسئلة ويستفهمونني عن سبب حملي للقب اسباني محض وأنا مغربي، لغتي العربية وديني الإسلام، فكنت أجيبهم بأن أصلي "من هذا البلد الذي أنتم منه وأجدادي هاجروا منه الى المغرب في أيام المحن والاضطهاد على يد أجدادكم الذين منعوهم من العيش بين ظهرانهم بعقيدتهم الإسلامية فخيروهم بين الخروج من وطنهم أو التنصر، فاختاروا الاولى وغادروا ديارهم. كما كانوا يطلبون مني ايضاحات أكثر مثل "ما اسم الجد الذي خرج من اسبانيا من أسرتك، كم عدد الاجداد منه حتى الآن، وتاريخ خروج الأول من اسبانيا، وما هو المكان الذي غادروه في اسبانيا..". إلى غير ذلك من الأسئلة المتعددة والمتنوعة، فكنت لا أجد لها إلا جوابا واحدا وهو انني أجهل كل شيء ولا أعلم إلا انني من أصل أندلسي ... وعلى الخصوص من قشتالة، بسبب اللقب الذي أحمله، والذي يشير الى اننا من هذه المقاطعة الاسبانية، كل هذه الأشياء خلقت في فضولا خاصا للبحث في موضوع أولئك الذين غادروا وطنهم فرارا بعقيدتهم الإسلامية. وكان يهمني في ذلك على الخصوص الأواخر



منهم الذين خرجوا في فترات متعددة بعد سقوط غرناطة حيث ان من خرجوا من اسبانيا والدولة الاسلامية مازالت قائمة بها لم يكن خروجهم يكتسي صفة الطرد بخلاف من خرجوا بعد ذهاب الدولة الإسلامية بالمرة. وبما ان جل أسر تطوان وغيرها كالرباط وسلا والشاون... من نسل اولئك الذين هاجروا من غرناطة بعد سقوطها وعائلتي من ضمنها، لذا ركزت اهتمامي وكرست مجهودي في البحث عمن طردوا بعد سقوط مدينة الحمراء.

ان هذا الموضوع يصعب على الباحث فيه ايجاد مراجع باللغة العربية، لأن المؤرخين العرب لم يعطوه حقه من الاهتمام مع أن شعبا عربيا مسلما بقي يكافح نحو قرن وربع من أجل اسلاميته وعروبته ووجوده الى ان غلب على أمره، اما المؤرخون الأجانب وعلى الخصوص الاسبان فقد اهتموا به وكتبوا عنه الشيء الكثير، وقد اعتمدنا على مراجعهم في هذا البحث لاعتقادي ان الاعتماد عليهم افضل من غيرهم لانهم مسيحيون ولابد من ان يكتبوا بدافع من النزعة المسيحية. ورغم ذلك فان جلهم لم يخف الحقيقة التي تروى عما قاساه المسلمون على يد بني جلدتهم، كما بحثنا في المكاتب عما يمكن ان يوجد من مخطوطات اولئك المطرودين فلم نعثر الا على القليل النادر منها ما يشمل بعض كتابات وتعاويذ وأدعية في مكاتب مدريد والاسكوريال، ومنها ما هو مكتوب بالمسمى عند الاسبان "كتابة الخميادو Al Jamiado" (الأعجمية) وهي الاسبانية مكتوبة بالحروف العربية ولكنها ليست مصادر يعتمد عليها في تنوير السبيل للباحث واعطائه فكرة تاريخية شاملة عن حياة تلك الأمة المندثرة، اللهم الا بعض مخطوطات تشمل بعض صفحات تعد على رؤوس الأصابع عثرت عليها بالخزانة الكتانية بفاس بخط يد موريسكي

هاجر من اسبانيا ودون بعض المعلومات عن حياته الخاصة بها قبل هجرته الى المغرب فنقلتها بنصها ونشرتها في هذا البحث.

لقد جعلنا لهذا الكتيب **اسم** " محنة الموريسكوس" فاحتفظنا بهذا الاسم الذي هو علم على الشعب المسلم الذي بقي بشبه جزيرة ايبيريا بعد ذهاب دولتهم منها والذي ألصقه الاسبان بهم. وكلمة "موريسكو" مشتقة من مورو هو المغربي بالاسبانية، وكانوا يقصدون بها الشعب المتنصر، وكانوا يعطون للموريسكوس صبغة أمة غريبة عن اسبانيا تعيش فيها فيجب ادماجها بين الاسبان بالتنصير أو إخراجها، أما بقاؤها على حالتها فهذا ما لا يقبل ولا يمكن ان يحتمل وقد كان ما كان من نهايتهم المؤلمة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولقد كافحت هذه الأمة وجاهدت وخاضت معارك عدة وقامت بثورات عديدة أشهرها ثورة جبال البوشرات Alpujarras بناحية غرناطة في عام 1570 التي عين فيها الموريسكوس ملكا عليهم وصاروا يطلبون النجدة من المغرب وغيره من البلاد الاسلامية، فنحو قرن وربع وهذا الشعب يكافح ويناضل من أجل عقيدته الإسلامية، لهذا أردنا ان نعطي ولو فكرة موجزة عن هذه الجماعة التي شغلت تاريخ البشرية حقبة قصرة من الزمن ولكنها حقبة مليئة بالمآسي والأحزان وفي نفس الوقت بالكفاح والبطولة والتضحية، كما انها أيضا مليئة بالنشاط والعمل في الميادين الزراعية والتجارية والصناعية، فكانت اسبانيا مزدهرة في ايامهم اقتصاديا، اما الناحية العلمية فلم يكن لشعب الموريسكوس اهتمام بها، لان العلم مرهون باللغة ولغته كانت تطارد وتحارب لذا كرس حياته كلها من أجل الازدهار الاقتصادي والفني.

ونحن نقدم هذا البحث المتواضع أمام القارئ عسى ان نكون قد

قمنا ببعض الواجب نحو مجموعة من الأمة الإسلامية العربية أهملها التاريخ الإسلامي العربي ولم يعترف لها بما قدمته من أجل العروبة والإسلام، والله الموفق للصواب وما يذكر إلا أولوا الألباب.

المؤلف

مدخل

الموريسكوس هم المسلمونَ الذين بقوا في اسبانيا بعد ذهاب دولة الإسلام نهائيا من شبه الجزيرة الايبيرية بسقوط غرناطة، آخر عاصمة لهم على يد إزابيل، وفرناندو، وخروج أبي عبد الله منها آخر ملك عربي مسلم من أسرة بني الأحمر أو بني نصر.

عند سقوط مدينة غرناطة على يد الملوك الكاثوليكيين الإسبان نزح كثير من المسلمين الأندلسيين الى المغرب وخاصة الى مدينة تطوان، وكان على رأسهم المجاهد سيدي احمد المنظري، فأعادوا تجديد تطوان وبهم صارت من أعظم مدن المغرب، وجل النازحين اليها كانوا من أهالي غرناطة وما جاورها، لذلك تجد أن جل أسر تطوان الأصلية تحمل ألقابا اندلسية أو اسبانية، ومن العائلات من اندثرت ولم يبق أحد يعلم عنها شيئا، وقد ذكر المؤرخ الاستاذ محمد داود في كتابه "تاريخ تطوان" كل الأسر النازحة الى تطوان من الأندلس وذكر من ضمنهم من اندثر منهم، ثم بعد مرور سنوات على سقوط غرناطة نزحت الى المغرب أسر في فترات متعددة وظروف متغايرة واستقرت بأماكن شتى بالمغرب، ولكن لم نجد واحدة من هذه الأسر تحتفظ بوثائق أو ما يدل على تاريخ هجرتها من الأندلس، وعلى الظروف التي غادرت فيها أرضها، وقد استمرت الهجرات بعد سقوط غرناطة الى أوائل القرن السابع عشر، بل حتى المؤلفين الاسبان لم يذكروا أسماء العائلات التي نزحت أو طردت، بل يكتفون بسرد الحوادث وكيفية وأسباب خروج الموريسكوس، والناحية التي وقع فيها الطرد، والطريق الذي سلكوه، وعدد من طردوا



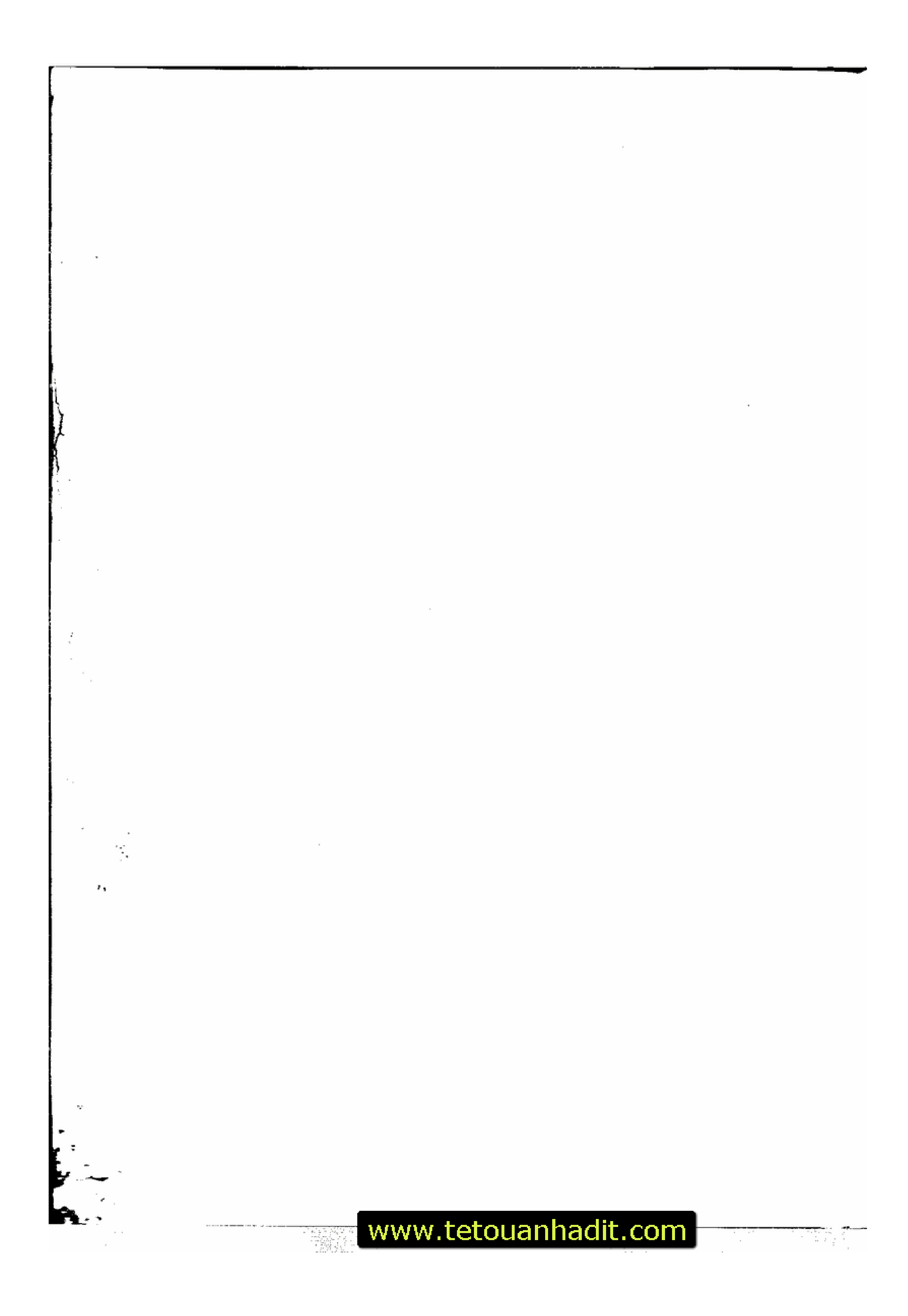
في كل فترة، والأوامر التي صدرت في شأنهم، والتاريخ الذي يحدد وقت الطرد الى غير ذلك، أما أسماء العائلات التي طردت ومتى خرجت من اسبانيا فهذا مرهون بها وبالأشخاص الذين هم رؤوس العائلة، ولكن هؤلاء كانوا في ظرف عصيب ووقت كئيب لا يسمح لهم بالتفكير في مثل هذه الأشياء ولا يهتمون بها اهتمامهم بشؤون حياتهم المعرضة للخطر وللموت المحقق في بعض الاحيان، لانهم كانوا يساقون في حالة مزرية الى المراكب البحرية لشحنهم فيها وهم في حالة خوف ورعب الى مصير مجهول ينتظرهم، فاذا كانت حالة الشخص هكذا، فكيف يفكر في تدوين حياته وحياة اسرته، بل لم يحتفظوا حتى بوثائق تثبت ملكيتهم لبيوتهم وعقارهم باسبانيا، ولو أن بعض يهود المغرب يدعون أنهم مازالوا يحتفظون بمفاتيح بيوتهم بالأندلس، اللهم الا مخطوطة بيد خط موريسكي وقفت عليها بالخزانة الكتانية بفاس نشرتها بنصها في هذا البحث دون فيها صاحبها حياته الشخصية ومن سياق الحديث ذكر تاريخ إقامته بتونس.

لقد كان الاواخر من الموريسكوس يعاملون معاملة سيئة حتى من قبل المغاربة لانهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق النصارى وكانوا يتعاطون الخمر ويأكلون لحم الخنزير ونساؤهم تخرجن سافرات الشيء الذي لم يرق المغاربة فكانوا بهذا يلاقون معاملة سيئة ونفورا من المغاربة، بخلاف المهاجرين الاولين فقد كانوا على حالتهم الاسلامية الصرفة، فلم يعانوا ما عاناه الاواخر وخاصة وأنه كان من بينهم علماء أجلاء استفاد منهم المغرب.

أعتقد ان تاريخ الموريسكوس هو تاريخ شعب عاش بين شعب عدو له زهاء قرن وربع وكان على اتصال مستمر بالمغرب لقربه منه، وكانت

ـر منه ومن المغرب ترتبط بالمصاهرة والتعامل وكان افراده يتبادلون
لزيارة في مناسبات متعددة وان السكان المغاربة المنتمين لاصل
ندلسي لا يوجدون في تطوان او غيرها من المدن فقط، ولكنهم يوجدون
كذلك في القرى والمداشر وخاصة قرى ومداشر جبال شمال المغرب وعلى
الخصوص الناحية الغربية التي تقع بين طنجة والحسيمة. فمدينة
الشاون كلها اندلسية ومؤسسها اندلسي وجبال بني حسان والاخماس
وقبائل غمارة والحوز كلها اندلسية وتحمل ألقابا اندلسية وبكلامها
مفردات اندلسية، فما قرية بني جبارة بقبيلة الاخماس الا اسم اسباني
محض Guevara وما قرية بليونش بجوار سبتة الا اسم اسباني
محرف Peñones وهي رؤوس الجبال الى غير ذلك من الأشياء التي
تثبت ان أهالي شمال المغرب سواء اهالي المدن أو القرى جلهم من أصل
أندلسي، فقد منح الملوك الوطاسيون للأندلسيين عند نزوحهم من
غرناطة التفويض بحماية الأبراج والحصون بشمال المغرب بل سمح لهم
برفع الراية الأندلسية عليها، فكان لهم شبه استقلال هناك بقيادة المجاهد
والقائد احمد المنظري الآنف الذكر، وما ان علمت الأسر الأندلسية بذلك
حتى فرحت واستبشرت وهاجرت الى المغرب واتخذت منه وطنا جديدا،
وأقامت تحصينات ومعاقل بالشمال خشية من عبور النصارى إليها
هناك، ولو ان البرتغال كان يحتل اذ ذاك سبتة وبعض نقط أخرى
بالشاطئ المغربي، وقد كانت نظرية الأندلسيين في هذا صائبة لأنهم
جربوا ورأوا ذلك بالعين المجردة، فما ان مرت بعض السنين حتى كان
البرتغال يطمع في اكثر مما بيده قاصدا التوسع في ارض المغرب،
فكانت نتيجة جشعه وطمعه ان هزم شر هزيمة في معركة وادي المخازن
الشهيرة بجوار مدينة القصر الكبير وكان دور اخواننا الأندلسيين في

'الاستشهاد عظيما وابلوا في ذلك البلاء الحسن، وكانت مثل هذه الانتصارات تبعث في نفس الموريسكوس باسبانيا بارقة أمل، فكانوا ينظرون الى انتصار المغرب على النصارى نظرة رجاء لأنهم يعلمون ان في قوة المغرب قوتهم فعليه يعتمدون، واليه يرجعون فيما يؤملونه من استرداد ملكهم الضائع بالأندلس، لأنهم يعلمون ان قوة المغرب هي التي فتحت الاندلس، وان قوة المغرب هي التي اعادت الى الأندلس حياتها بعد ان كادت ان تضمحل وتسقط في يد النصارى ايام ملوك الطوائف أيام المرابطين، وان ضعف المغرب هو الذي سبب ضعف الاندلس الى ان ادى بها الى الضياع، لهذا كله كانوا باستمرار يتطلعون الى المغرب وما يفعله المغرب وما سيأتي من المغرب.



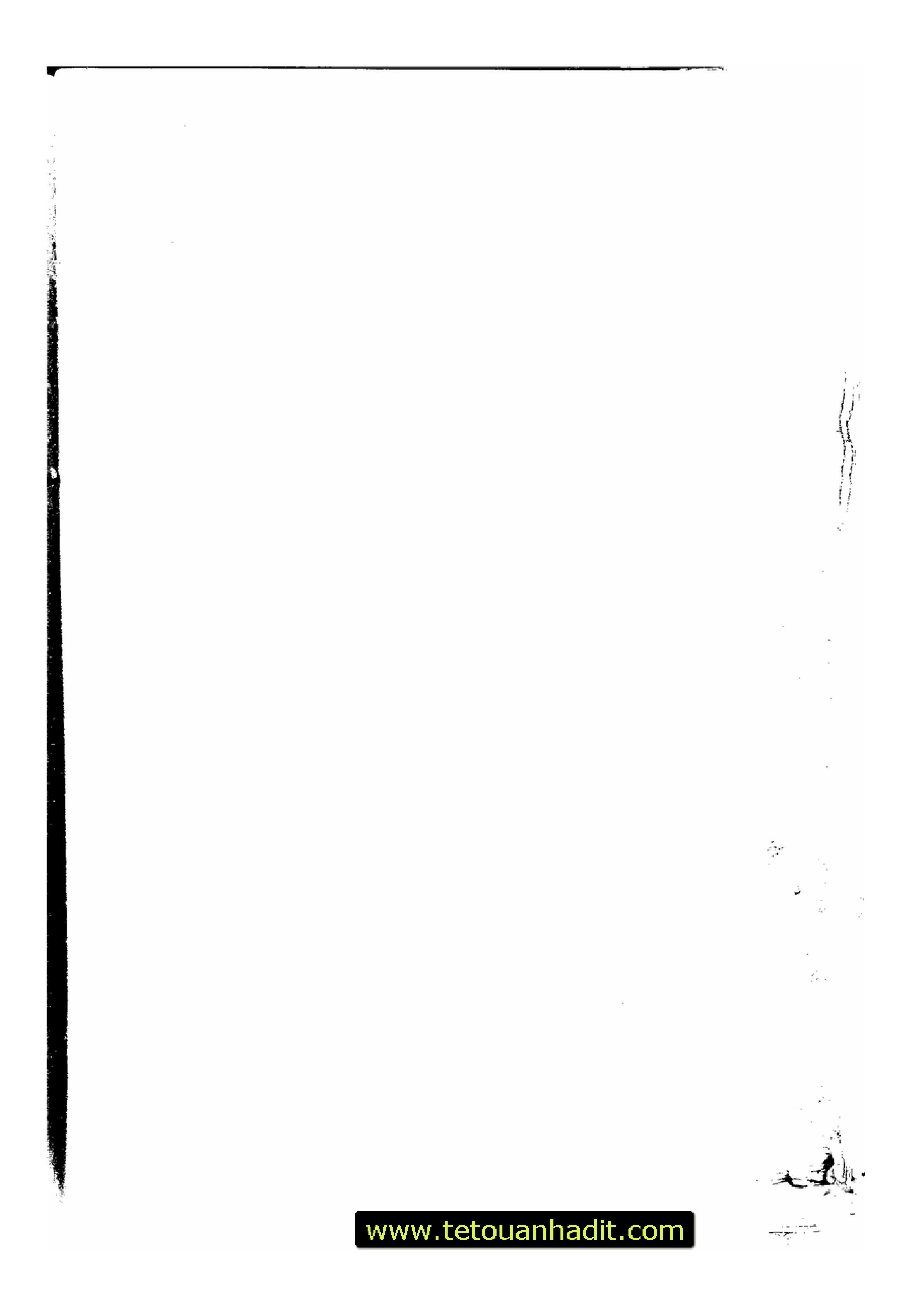
HAGO TESTIGO QUE NO HAY
SEÑOR SINO ALAH UNO SOLO, QUE NO HAY ADVER-
SARIO A EL.
Y HAGO TESTIGO QUE MOHAMED ES SU SIERVO.
Y SU MENSAJERO ENVIOLO CON EL GUIAMIENTO Y
CON EL.
DDIN VERDADERO PARA QUE LO DEMOSTRARA (SE)
SOBRE LOS
ADDIN A (Las religiones) Y SER TODOS AUNQUE
PESE A LOS DESACREYENTES.

. . .

SEÑOR ALAH NOS TE DEMANDAMOS
AYUDA Y TE DEMANDAMOS GUIAMIENTO Y TE
DEMANDAMOS.
PERDON Y CREEMOS EN TI Y TENEMOS ESP

ترجمة مكتوبة بالحروف الاسبانية للصفحة المقابلة
من خط الموريسكوس لتسهل القراءة.
وقد كتب كل سطر بالحروف الاسبانية تجاه
مقابله بحروف الموريسكوس.
والصورة رقم (1) مأخوذة عن كتاب للأدعية
والعبادة كتب بخط الموريسكوس محفوظ بالمكتبة
الاهلية بمدريد

(كتابة الخميادو) اللغة الاسبانية مكتوبة بالحروف العربية



نظرة موجزة عن حالة المسلمين بالممالك التي سقطت بيد النصاري قبل سقوط غرناطة

ان موضوعنا يتعلق بالمسلمين في اسبانيا بعد سقوط غرناطة وكيف عاشوا بعد ذهاب دولتهم بين اظهر النصارى، ولكن يجب ان نلقي نظرة موجزة عن حياتهم مع النصارى في الاراضي التي سقطت قبل غرناطة ليكون الكلام متسلسلا، ولنعرف الفرق في معاملة النصارى للمسلمين ودولتهم مازالت قائمة ثم بعد ذهابها بالمرة.

كان المسلمون الواقعون تحت حكم النصارى قبل سقوط غرناطة يدعون "بالمدجنين"(1) وهؤلاء كانوا مقيدين بمعاهدة مع النصارى موقعة من الجانبين بل كانوا يتمتعون حتى ببعض الحرية السياسية والدينية والاجتماعية على أساس الاعتراف بسيادة ملك النصارى عليهم كما سنرى.

بعد احتلال المسلمين لاسبانيا وقع امتزاج بين الشعبين واختلاط بين الجنسين بالمصاهرة وبالمعاملة ولم يحصل بين العامة فقط بل حتى بين الخاصة، فنجد ان الفونصو الاول الملقب بالكاثوليكي مثلا تزوج بمسلمة وانجب منها ولدا ورث عرشه وتجد ان عبد العزيز الملقب بالفاتح ايضا تزوج بارملة الملك القوطي رودريگو Rodrigo (لذريق) الذي دخل عليه المسلمون وحطموا ملكه في المعركة الشهيرة المعروفة بمعركة وادي لطة

---

1) أتيا من الفعل "دجن" يعني قطن ولم يغادر المكان والاسبان يقولون لهم الموديخار Modejares وهي كلمة محرفة عن المدجن، وعند ذهاب دولة الاسلام من الاندلس بالمرة ابدل هذا الاسم Moriscos بالموريسكوس من موروس اي المغاربة، كانوا يطلقونه على المسلم المتنصر في نظرهم تمييزا عن النصراني القديم أو الأصيل كما يطلق المغاربة اسم "الاسلامي" على اليهودي الذي اعتنق الاسلام.

Guadalete قرب شريس Jerez. وقد وجد المسلمون اسبانيا في حالة يرثى لها من الانحطاط والتأخر المخيمين عليها من جميع النواحي من جراء استبداد الحكم القوطي، فأدخلوا العلوم والفنون والزراعة والصناعة وغير ذلك مما جعل اسبان الشمال (الشمال الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية بقي بيدي النصارى وهي المعروفة الان بمقاطعة غاليسيا Galicia (جليقية)، يستخدمون أسارى المسلمين في الزراعة ويمنحون لهم حرية العمل بن أظهرهم. وقد اعتمد النصارى على المسلمين في زراعة الاراضي حتى ايام ذهاب دولتهم من الاندلس مما جعلتهم الضرورة يحتجون على ملوكهم الكاثوليك ضد السياسة التي يسيرون عليها في طرد المسلمين من اسبانيا كما وقع بأراغون وبلنسية كما سيأتي ذكره بعد.

تقاعس المسلمون عن الفتح وانغمسوا في الملاهي والملذات وحادوا عن الطريق المستقيم فكان هو سبب خروجهم من حيث دخلوا ورجوعهم من حيث أتوا وابتدأ نصارى الشمال يشنون الغارات على المسلمين وبدأ الخلاف يدب في جسم الامة الاسلامية كما هو معروف الى ان كان ما قدر الله فصدق قوله تعالى :« ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده ».

كانت معاملة النصارى للمسلمين بعد سقوط غرناطة في الغالب حسنة كما كانت من ذي قبل في الاراضي التي استولوا عليها قبل غرناطة. ولم يضايقوا أو يرغموا المسلمين على التنصر الا في ايام الكردينال ثيسنيروس في عام 1538، فقد وقع في الاسر بعض أمراء المسلمين عند احتلال النصارى لناحية من نواحي قشتالة فتركوا لهم حريتهم الدينية والاجتماعية مقابل ان يحافظ هؤلاء الامراء على الولاء والاخلاص للملك النصارى وكذا عند سقوط ليردة Lérida واوسكا Huesca ووادي الحجارة Guadalajara وطليطلة Toledo وكان هؤلاء الامراء يحضرون في

المجلس الملكي على أساس ان لا يحملوا معهم السلاح داخل المجلس المذكور وكانوا يتمتعون بكل الحقوق المتعاقد عليها مع ملوك النصارى الحامين لهم، وكانوا يقومون هم أنفسهم بحماية الحصون والابراج التي هزموا فيها، فكانت علاقة هؤلاء الامراء المسلمين مع ملوك النصارى علاقة الحامي بالمحمي يشبه بعض الشيء ما نراه في عصرنا الحاضر من بسط حماية دولة على أخرى.

لم تكن معاملة ملوك النصارى أو امراؤهم باسبانيا للمسلمين واحدة، بل كل ملك أو أمير يعاملهم حسب ما يبدو له وما توحيه اليه نفسيته وشهوته ومصلحته الخاصة، فسياسة خايمي الاول الذي احتل بلنسية وفرناندو الملقب بالصالح عندما احتل قرطبة واشبيلية غير سياسة ما ذكرناه آنفا عند احتلال النصارى لناحية قشتالة وليردة واوسكا ووادي الحجارة وطليطلة، فكانوا يقسمون سكان اراضي المسلمين التي يحتلونها الى ثلاثة أنواع: المتنصرون، والمملوكون، والاحرار، وكل واحد يعامل على حدة بسياسة خاصة.

كان المتنصر يتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها النصراني القديم او الاصيل - كما يسمونه - كانت حقوقه مرعية ومحمية من الظلم، وبالعكس نرى من يمتنع عن اعتناق المسيحية يمنع من ان يرث الابن والده عند موته ويتعقبونه في حركاته وسكناته ويحرقونه بالنار إذا ارتكب جريمة في نظرهم ضد النصرانية وتستولي الحكومة على املاكه بعد موته بخمس سنوات.

أما المملوك فكان اسوأ حالا من غيره إذ كان يقاسي أنواعا من الآلام، وقليل من كان يستطيع الهروب الى ارض المسلمين لكثرة الرقابة الشديدة عليه، فكان يتمنى الموت لسيده ليصير حرا حسب ما هو متفق

عبيـه وما يجري به العمل، وكان يعمل جهده لاتمام الخدمة المقررة له في القانون لينخرط في زمرة الاحرار، فكانوا يحتمون عليهم التنصر بعد مدة من السنين أو يخلقوا لهم اي عذر لايقاعهم في الفخ، وغالبا تكون من نوع ضد الامن العام أو محاولة الهروب الى ارض الاعداء (يعني ارض المسلمين) وكانت المرأة تشترى لمدة معينة، وعند انتهاء المدة تعتق اذا لم يخلق لها مشكل لايقاعها في الفخ كالرجل كما قدمنا آنفا.

هكذا كانت معاملة سلطة النصارى للمسلمين بهذه الممالك وخاصة ايام خايمي الاول الملقب بالفاتح وفرناندو الملقب بالصالح، يقول خانير "ان معاملة النصارى للمدجنين باعطائهم الحرية من حماية الحصون والابراج بانفسهم إنما كان اتقاء لاراقة الدماء، ويجد القاريء بعض نصوص الاتفاقات والمعاهدات في هذا الشأن بعد اتفاق طليطلة Todela وطرطوشة Tortosa أو اتفاق طليطلة واتفاقات اخرى بعد سقوط بلنسية وقرطبة واشبيلية، ونذكر ما جاء في بعضها على سبيل المثال وهو اتفاق خـ[illegible] الاول (الفاتح) مع مسلمي وادي وكس Vxa الذي ينص على بقائهم [illegible] المذكور والسماح لهم في كل ما سلف منهم ومنحهم حرية تعليم [illegible] جهارا في منطقتهم، وإقامة شعائرهم الدينية وعاداتهم [illegible] واعطائهم حرية التنقل على أساس ان يدفعوا الضرائب [illegible] كما خول لهم حكم انفسهم بأنفسهم فيما يقع بينهم من [illegible] (1) ويتصرفون في املاك المساجد وتعيين حكامهم [illegible] ولا يسكن بينهم نصراني أو متنصر الا برضاهم، يمنح الاذن [illegible] وثيقة وعد تضمن لهم حماية انفسهم وحماية املاكهم

[illegible] خدمة تفصل فيها محاكم خاصة.

ولمن يأتي من بعدهم على أساس ان يدفعون رواتب خدامهم ولا يقتربون من مكان الحرب ولا يطلبون اعانة مُن اعداء ملوك اراغون.

لم تكن سياسة التعايش بين النصارى والمدجنين واحدة فكانت حسب الظروف والاحوال، فمن النصارى من كانوا لا يخالطون المسلمين في اكلهم ولا يستحمون في حماماتهم ولا يعالجون مرضاهم ولا يدفنون في مقبرتهم ولا يسمحون لهم بإقامة حفلاتهم على مرأى ومسمع ولا يسمح لهم بالمجادلة في الشؤون الدينية أو يتحكم أو يفض مسلم رأيه على نصراني. وعلى كل حال فمعاملة النصارى للمسلمين كانت حسب الازمنة والاحوال وسياسة الملوك، فبعضهم كان متسامحا وبعضهم كان غير ذلك، بل منهم من كان متسامحا في ظروف اخرى أو متسامحا مع جهة ويقسو على جهة كما رأينا في سياسة خايمي الاول، فكانت معاملته مع مسلمي بلنسية غيرها مع مسلمي وادي وكس vxa فنراه يتشرد في سياسته مع الاولين بينما يتساهل مع الآخرين.

ومن ملوك النصارى من كان يعامل المسلمين المدجنين معاملة حسنة، فالفونصو العاشر الملقب بالعالم كان ينهج سياسة الرفق والتسامح محاولا بذلك خلق اتحاد للعنصرين المسلم والنصراني، ويسعى جهده لذلك بكل الطرق السلمية المؤدية إلى هذه الغاية، واعطى الحرية الدينية والفكرية للمسلمين. وكان لهذا الملك مستشار راهب يدعى الاب ريموندو اشار عليه بأن تحرير اسبانيا من يد المسلمين لا يكون الا بالاقبال على تعليم علوم المسلمين لا بالقوة الحربية، فأشار عليه بتأسيس مدرسة لترجمة العلوم العربية من دين وفلسفة وطب وتنجيم وغير ذلك، فاهتدى برأيه وأسس مدرسة الترجمة بطليطلة وجمع فيها علماء المسلمين واليهود لترجمة العلوم من العربية إلى اللغة اللاتينية.

فترجم لأول مرة القرآن والتلموذ، ولهذا لقب هذا الملك بالحكيم. ففي عام 1254 م أمر بتعليم العربية بجانب اللاتينية، وترك للمسلمين مساجدهم على أساس ان يضعوا الصليب في المسجد الاعظم احتراما له كما كان في مسجد جيان وقرطبة واشبيلية، وكانت العلاقات إذ ذاك حسنة بين ملوك النصارى وملوك المسلمين، والدليل على ذلك ان ملك غرناطة المسلم ارسل في عام 1260من يمثله في الحفلة الدينية التي أقيمت بكنيسة اشبيلية على روح سان فرناندو وإحياء للذكرى السنوية لموته، وفرناندو هذا هو الذي انتزع اشبيلية من يد المسلمين ويقال ان هذا التسامح كان يضر بملوك النصارى لانه يعطي فرصة للمسلمين للقيام بالثورة، ولكن ثوراتهم كانت تذهب سدى وتعود عليهم بالضرر، حيث ان النصارى كانوا يقمعونها بكل قسوة ويعتبرونها نقضا للمعاهدات والمواثيق من جانب المسلمين، ولا يريدون بعد ذلك عقد تجديدها كما نجد ان بدرو الثالث عمل كل ما في وسعه لجلب المسلمين من دولهم الاسلامية باسبانيا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، وكلف بهذا حكامه ورجال الدين وسفراءه، وصار يعمل بحماس لهذا الغرض واسند هذه المهمة على وجه الخصوص الى رجال سلطته ببلنسية وامرهم ان يتعاونوا جهد طاقتهم مع القسيس الدومنيكي خوان دي بوكوينطس، وكان خبيرا باللغة العربية، ولقد عقد الاباء الدومنكيون جمعا في عام 1281 قرروا فيه ادخال اللغة العربية في الكنائس ليتمكن المسلمون من فهم صلاة النصارى وجعلوا دراستها عامة، كما فعل خايمي الثاني في ديره ببلنسية وأعلنوا بذلك مسلمين بلنسية واراغون ليقبلوا لسماع الصلاة، وقد حبست بعض املاك الملك المذكور ضونيا بلانكا على دير سانطو دومنيكو قصد اتفاق مدخولها على تعليم اللغة العربية وكذا العبرية.

وفي عام 1313منع خامي الثاني المسلمين من حمل السلاح في الشوارع وارغمهم بان ينحنوا على ركبهم او يبتعدوا عند مرورهم أمام مكان مقدس عند النصارى ومنعهم من ان ينادوا جهارا للصلاة في الشوارع والميادين ونفس الخطة انتهجها بدرو الرابع في عام 1348م، بل زاد على ذلك فمنع المسلم ان يتجر مع نصرانية. اما في عهد حكم خوان الاول فكانت السياسة السائدة هي سياسة التنصير. لقد قدم خوان المذكور على سياسة التنصير بالتي هي احسن بمساعدة رجال الدين امثال [illegible]تين اوماندو وضون فرناندو دي انطكرا مشجعين من البابا بندكطو دي لونا، ونجح هؤلاء في عملهم التبشيري مع العلم بأنه كان يوجد من يقاوم هذا التبشير، وقد أسس ألفونصو الخامس محكمة التفتيش ببلنسية لمقاومة الدين الإسلامي وقد ضل مسلمو بلنسية وقطالونيا وأراغون وقشتالة مخلصين لملوك هذه المماليك الى ان سقطت غرناطة.

هذه نظرة اجمالية عن معاملة النصارى للمسلمين قبل ذهاب دولتهم من اسبانيا. والآن سننتقل الى موضوع معاملة النصارى للمسلمين بعد سقوط غرناطة وانقضاء دولة المسلمين من شبه الجزيرة الايبيرية وهو موضوع الكتاب والله الموفق للصواب.

سقـوط غرناطـة
آخر دولة اسلامية بشبه الجزيرة الايبيرية

في اليوم الثاني من شهر يناير سنة 1492م قدر الله النهاية لملك الإسلام باسبانيا بعد ثمانية قرون من اقامته، فسقطت غرناطة آخر معقل للمسلمين ودخلها فرناندو وازابيل منتصرين وسلم مفاتيحها ابو عبد الله من أسرة بني نصر أو الأحمر آخر ملك مسلم عربي.

ألف الملكان الكاثوليكيان (فرناندو وازابيل) حكومة من الاشخاص ذوي الخبرة والمقدرة وجعلوا سياستهم هي بث الالفة بين الشعبين المسلم(1) والنصراني وتكوين وحدة وطنية متحدة تحت سيطرة حكومة واحدة مع بقاء كل فريق محافظ على دينه وعقيدته، ونورد ذكر العهود التي قطعها الملكان المذكوران على نفسهما لمسلمي غرناطة وتعهد المسلمون أيضا بالمحافظة على شروطها.

أولا - يمنح الملكان الكاثوليكيان الضمانة الكافية للمسلمين على أملاكهم وثروتهم، وان يبيعوا ويبتاعوا ويتبادلوا ويتجروا قبل افريقيا بدون ان يدفعوا ضرائب أو الواجبات المفروضة عليهم من قل القانون الإسلامي.

ثانيا - ان الملوك الكاثوليكيين باسمهما وباسم خلفهما مجبوران على احترام العادات الاسلامية على الدوام بترك مساجدهم وعدم منعهم من الاذان ومن الصلاة ومن تحبيس املاكهم على مساجدهم لاقامة الشعائر الاسلامية، والحكم يبقى مستمرا بين المسلمين على يد قضاة

---

1) من الآن أبدل النصارى اسم المسلمين الخاضعين لهم (بالموريسكوس MORISCOS) بدلا من المدجنين MODEJARES.

مسلمين حسب قوانينهم وعوائدهم الاجتماعية والمدنية من ارث وزو ج كما كانت من قبل.

ثالثا - لا يتابع ولا يعاقب ولا يسب ولا يهان او يعترض له بسوء من خالف القوانين وحارب ضد النصارى من قبل، او كان موقفه معاديا لهم.

رابعا - يسمح للفقهاء بالاستمرار في التعليم بالمدارس العامة ويتقاضون مرتباتهم والصدقات والتبرعات المخصصة لهم من الاحباس لهذا الغرض.

خامسا - اي مشكلة تحدث بين مسلم ونصراني ترفع لقضاة يحكمون فيها من الجانبين (قضاة مسلمون ونصارى) وكل الموظفين أو المستخدمين المسلمين يستمرون في عملهم.

هكذا انتهت قضية حكم المسلمين لغرناطة، وبعد الاتفاق والاستسلام كلف الملوك الكاثوليك بشؤون غرناطة الرئيس الديني إرناندو طالابرا، والقائد العسكري بينيكو لوبث دي مندوثا كوندي دي طينديا المشهور بحروبه ضد المسلمين، وكلف بترجمة الوثائق ومعاهدة التسلم إرناندو دي ثافرا كاتب الملوك الكاثوليك، ويقال ان هؤلاء الاشخاص احسنوا معاملة المسلمين حتى انه كان يوجد من يفضل البقاء في الجبال حرا لا يريد ان يدخل تحت حكم النصارى من الجيوش الاسلامية، ولكن حسن سيرة هؤلاء جذبتهم وجعلتهم ينضمون للمجتمع الغرناطي.

سافر فرناندو وإزابيل الى كاطالونيا للتفاهم في مسائل سياسة مع فرنسا وكلفوا الحكومة الجديدة المؤلفة من الاشخاص المذكورين بمعاملة المسلمين معاملة حسنة وادخالهم في المسيحية شيئا فشيئا وعمل

الخروج من اسبانيا والذهاب الى المغرب، لأن اعضاء الحكومة الجدد كانت سياستهم ترمي الى توحيد الدين فقد طردوا اليهود من قبل في سنة 1492 عند سقوط غرناطة والآن جاء دور المسلمين في عام 1502، خرج بطريق البحر من أراد البقاء على الإسلام، على شرط ان يترك أبناءه وبناته الذين لا يتجاوز عمرهم أربعة عشرة سنة مع ذهبهم وحليهم، وكذلك أجبروا المسلمين الساكنين بليون وقشتالة على الخروج وعينوا لهم الطريق الذي يسلكونه لارض مسلمة، ولكن الأمر لم ينفذ لأنهم تنصروا وخاصة أهالي افيلا وسمورة ومدريد ووادي الحجارة وطليطلة، ولكن دخولهم في المسيحية كان في الظاهر فقط مثل مسلمي نواحي طرويل من أراضي اراغون الذين قدموا يطلبون الدخول في النصرانية لاجل البقاء في وطنهم، ولكن نصارى اراغون وبلنسية رأوا في طرد المسلمين خسارة لهم لأنهم كانوا يعتمدون عليهم في الزراعة والصناعة لأنهم ادرى بفنون هذه الاشياء من النصارى، فقدم اشراف النصارى طلبا لفرناندو يلتمسون منه ويرجون ان يوقف هجرة المسلمين ويترك لهم حرية دينهم كما وعدوا من قبل، فحظي هؤلاء الأشراف من الملك فرناندو المذكور بمرسوم يلبي بمقتضاه تنفيذ طلبهم وكان هذا في عام 1510 وبهذا استمر بقاء المسلمين في اسبانيا مدة أخرى.

كارلوس الأول

نحن الآن في طور آخر من تاريخ المسلمين الموريسكوس وهو عصر كارلوس الأول لاسبانيا (شارل الخامس لألمانيا) ولكنه اشتهر في اسبانيا أيضا بكارلوس الخامس.

لو نظرنا الى حالة المسلمين من جميع نواحيها في عصر هذا

الامبراطور نجدها لا تقل عن غيرها في عصر سلفه من حيث الضغط والاضطهاد للموريسكوس، غير انه بطرق اخرى وبشكل آخر فالكل متحد في الغاية والهدف وان تغير الأسلوب، ان الشعب الاسباني على العموم قد ضويق في عصر كارلوس هذا فلا يستغرب - والحالة هذه - ان يكون نصيب الموريسكوس من المضايقة اكثر. كان في قشتالة بعض التسامح بين النصارى والمسلمين فكنت تسمع بالمناداة بالاخوة بين عامة الشعب والاشراف لاجل ان يقاوموا نفوذ وظلم الامبراطور الاجنبي الدخيل، اما في بلنسية فلم تكن توجد حركة غير حركة المقاومة بين الشعب والاشراف، داخل هذه الحركة وهذه المعركة كان يوجد الشعب الموريسكي ناقما ساخطا، ولكنه ضعيف خائر القوى لا يملك وسائل للتقرب من حزب الشعب، وكذا غير قادر على التقرب من حزب الاشراف ايضا، ولكنه رغم هذا كان مضطرا لان يترك ادوات الحرث والزراعة ويحمل بدلها أدوات الحرب ليخوض المعركة لاجل الدفاع عن اشراف بلنسية لان حياته بيدهم فكونوا فرقا منهم ودافعوا عن اسيادهم دفاع الابطال ولكن في النهاية كانت الدائرة تدور عليهم فشردوا وعذبوا وتحملوا من الاذى ما لا يوصف ولا ذنب لهم الا انهم اقدموا على امر مدفوعين اليه من الغير، بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها، جاء الانتقام فخير المسلمون بين اثنين: اما الموت أو التنصر، هكذا صارت معاملة النصارى للمسلمين في عصر هذا الامير الامبراطور الدخيل الذي قدم من المانيا لوراثة عرش اسبانيا.

عمل الجرمانيون على تنصير مسلمي مملكة بلنسية مدفوعين من البابا كليمينطي السابع، بأن يطردوا من أراضيهم أو يعتنقوا المسيحية، وقد كتب بهذا ألونصو مانريكي الرئيس الديني لاشبيلية ومفتش عام ديني في ممالك اسبانيا في عام 1534، وكذلك نرى ان كارلوس الخامس

الامبراطور يتأثر بكلام فرانثيسكو الأول ملك فرنسا عندما كان أسيرا عند الامبراطور المذكور بعد موقعة بافيا في حصن بني صونو وهي مقاطعة مسكونة بالمسلمين، وشاهد ان هؤلاء يشتغلون في الأيام المقدسة عند النصارى فقال للامبراطور كيف يمكن لكاثوليكي مثلك ان يسمح لاعداء دينه بأن يسكنوا داخل بيته فأصدر كارلوس أوامره بتنصير المسلمين أو خروجهم من اسبانيا متأثرا بكلام ملك فرنسا الأسير.

ابتدأ التفتيش يعمل عمله والخطة التي انتهجها ثيسنيروس من قبل مع مسلمي غرناطة أصبحت تطبق مرة أخرى مما جعل مسلمي اراغون وبلنسية يعلنون الثورة.

اصدرت الاوامر بأن لا يخرج احد من مكانه ومن خالف فعقوبته أن يبقى مملوكا لمن يلقي القبض عليه، ومنعوهم من بيع الذهب والفضة والحلي او الحرير بل حتى الماشية والسمك التي تباع عادة في الاسواق، ومنعوهم من استعمال اية علامة في قبعاتهم فعقوبته ان يصير مملوكا، ولا يسمح لهم بحمل السلاح ولا بالعمل في ايام الاعياد النصرانية واذا مر النصارى امامهم يحملون صليبا يتحتم عليهم ان ينحنوا على ركبتهم ويخلعوا ما على رؤوسهم من بونيطس او غيرها احتراما له (بونيطس هي التي تسمى في المغرب الشاشية) ويتركون الصلاة العامة ويغلقوا المساجد، وجعلوا الرقابة على النصارى ليبلغوا محكمة التفتيش عن كل مسلم يخالف هذه القوانين، وكتب الرئيس الديني فتوى تنص على أن كل من خالف قوانين الامبراطور يعتبر خارجا عن الدين النصراني، وحدد اليوم الذي يكون فيه كل مسلم متنصرا أو يخرج من المملكة بدون مماطلة أو تأخير في الاجل، ويقال ان ثورة الموريسكوس بجبال اسبادان عندما اعلنوا استقلالهم هناك هي سبب هذا كله ولكنهم

عندما رأوا مسلمي بلنسية واراغون يقبلون على التنصير قدمو للامبراطور الطلب الآتي:

بعد تقديم الولاء والاخلاص لجلالتكم نعلمكم بأننا سندخل في النصرانية ونرجو ان لا تمس محاكم التفتيش املاكنا وأنفسنا في ظرف اربعين سنة، وفي ظرف اربعين سنة اخرى لا نجبر على تغيير الزي الاسلامي ولا اللغة، وفي الأماكن التي يوجد بها نصارى قدماء وجدد، يجعل للجدد مقبرة خاصة بهم وتبقى عادات اقامة حفلات الزفاف كما هي .. اربعين سنة، ففي ايام جماعات الجرمان بصفتنا "موروس" قد قدمنا خدمات لصاحب الجلالة وارقنا دماءنا في سبيل قضيته.

وهكذا نرى ان المسلمين المتنصرين وكانوا يسمون "بالنصارى الجدد" تمييزا لهم عن النصارى القدماء او الأصليين يتخطون عقبات ويقاسون ألوانا من العذاب كما انهم في بعض الاحيان كانت تمنح لهم كل أنواع الحريات، لكن حسب الظروف والاحوال التي تقتضيها مصلحة الحاكمين، فلقد عوملوا بالقسوة وبالتسامح ايام فرناندو وازابيل، وعوملوا بنفس المعاملة ايام كارلوس الخامس وكانوا دائما يتربصون الفرص لإعلان الحرب لاجل استرداد مجدهم الغابر وملكهم الضائع، فما حرب البوشارات التي سنتكلم عنها بعد حرب اسبادان الا نوعا من هذه الآمال، كانوا يدافعون دفاع الابطال عن دينهم وأمتهم وعقيدتهم، وقد كتب لهم النصر غير ما مرة ولكنه نصر مؤقت، وفي النهاية كانت تقع الدائرة عليهم، ماذا يفعل شعب اعزل محيط به عدوه إحاطة السوار بالمعصم، كان الموريسكوس يطلبون في الآونة والأخرى الإعانة من المغاربة، ولكن هؤلاء كانوا أيضا منغمسين في مشاكلهم الداخلية والخارجية مع نفس الاسبان والبرتغال الذين استولوا على بعض القواعد

البحرية في الشاطئ المغربي.

تنصر هؤلاء المسلمون ولكن تنصرهم كان ظاهريا فقط، وعداوتهم للنصارى باطنية، فكانت عقيدتهم التي يتمسكون بها هي الاسلام وعوائدهم اسلامية، ولغتهم عربية، وقلبهم يؤمن بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهذا مصداق قوله تعالى :« إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ».

رأى المسلمون ما حل بهم، فلجأوا الى عمل آخر وهو مداهنة النصارى بالتظاهر بالنصرانية وإخفاء الإسلام، وصاروا يمهدون السبل لقرصنة المغاربة والاتراك، ومن ملوك النصارى من كان لا يكتفي بتنصيرهم بل كان يجبرهم على تغيير الزي الاسلامي، ويضرب لهم أجلا لذلك، كما فعلت ضونيا خوانا وارثة عرش فرناندو وازابيل فقد حددت للمتنصرين من المسلمين المدة لتغيير زيهم العربي ست سنوات ونهج هذه السياسة كارلوس الخامس، ولكن كارلوس هذا جعلها بدون اجل محدود، وكذلك فعل الملوك الكاثوليك من قبل مع مسلمي طليطلة في يوم 6 فبراير عام 1480 بمرسوم ملكي صدر بالتاريخ المذكور، يقول ان المورو واليهود يسكنون متفرقين ويلبسون كبوشيس وعلامات ولا يتبنون حرفة فوق النصارى" ويقول مارول :« كان الموريسكوس يعبرون اهتمامهم للمسائل الاسلامية، اما المسائل النصرانية فكانوا لا ينصتون لها حين يلقنها لهم القسيس، وكان فيهم اشراف وعظماء ذوو همة عصبية يأبون الضيم ويمنون انفسهم دائما بعودة مجدهم الضائع.

لقد مقتوا سماع كلمة "نصراني" وملوا من الرقابة الشديدة عليهم حتى كان يؤدي بهم الحال الى ارتكاب الجرائم السرية لاجل الانتقام. كعلاقتهم بالقراصنة بتسهيل الدخول والخروج الى اسبانيا،

فكانوا يقومون بالطقوس الاسلامية سرا، وكانت لهم الثقة في العر فين يبعثون فيهم الأمل ويبشرونهم بعودة مجدهم الغابر، والوقت الذي ينادون فيه على رأس الملأ بكلمة "مورو" بلا خجل ولا وجل ويصيروا سادة اسبانيا كلها مرة ثانية، ويقضوا على رأس النصرانية التي تجبرهم على اعتناقها والذهاب الى الكنائس.

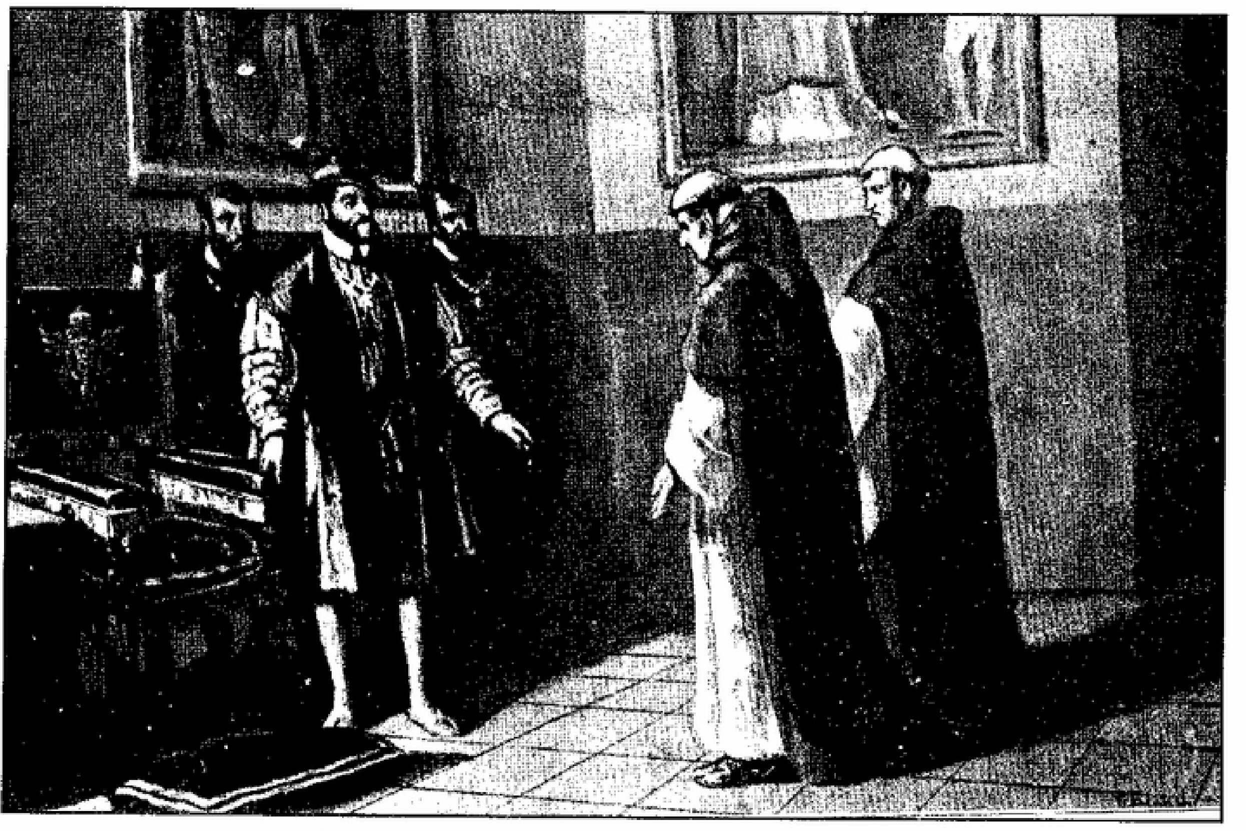
كان الموريسكوس يجبرون على أخذ أولادهم الى الكنيسة لتعبيدهم وتسميتهم بالأسماء النصرانية، وعند عودتهم الى البيت سرعان ما يغسلونهم ويختنونهم ويعطونهم اسما عربيا، وعند الزواج يجبرون أيضا على أن تلبس العروس لباسا نصرانيا وتذهب الى الكنيسة لتتزوج حسب الطقوس المسيحية، وعند عودتها إلى منزلها تنزع اللباس النصراني وتلبس اللباس العربي المسلم ويدخلونها في مكان مهيء لذلك، مزخرف بنوع من الثياب الملون بالأحمر والازرق ويقيمون الحفلات بموسيقاهم وحلوياتهم حسب العادات الإسلامية بالأندلس وكانوا يشتغلون أيام الأحد وأعياد النصارى ويعطلون يوم الجمعة ويغتسلون ويتوضئون للصلاة وأبواب منازلهم مقفولة، وبما انهم كانوا يجبرون على صلاة النصارى باللغة الاسبانية، فكان فيهم من لا يريد تعلمها يمكن له أن يعتذر بأنه لا يعرف الاسبانية حتى لا يصلي صلاة النصارى التي لا تجوز بلغة غير اللغة الاسبانية.

كانوا يستقبلون المغاربة والأتراك في بيوتهم وقراهم ويجعلون لهم علامات تسهل لهم وترشدهم الى كيفية الدخول الى اسبانيا للسطو والاغارة والزسر، وكانت ترفقهم الى افريقيا أسرا بأكملها من الموريسكوس.

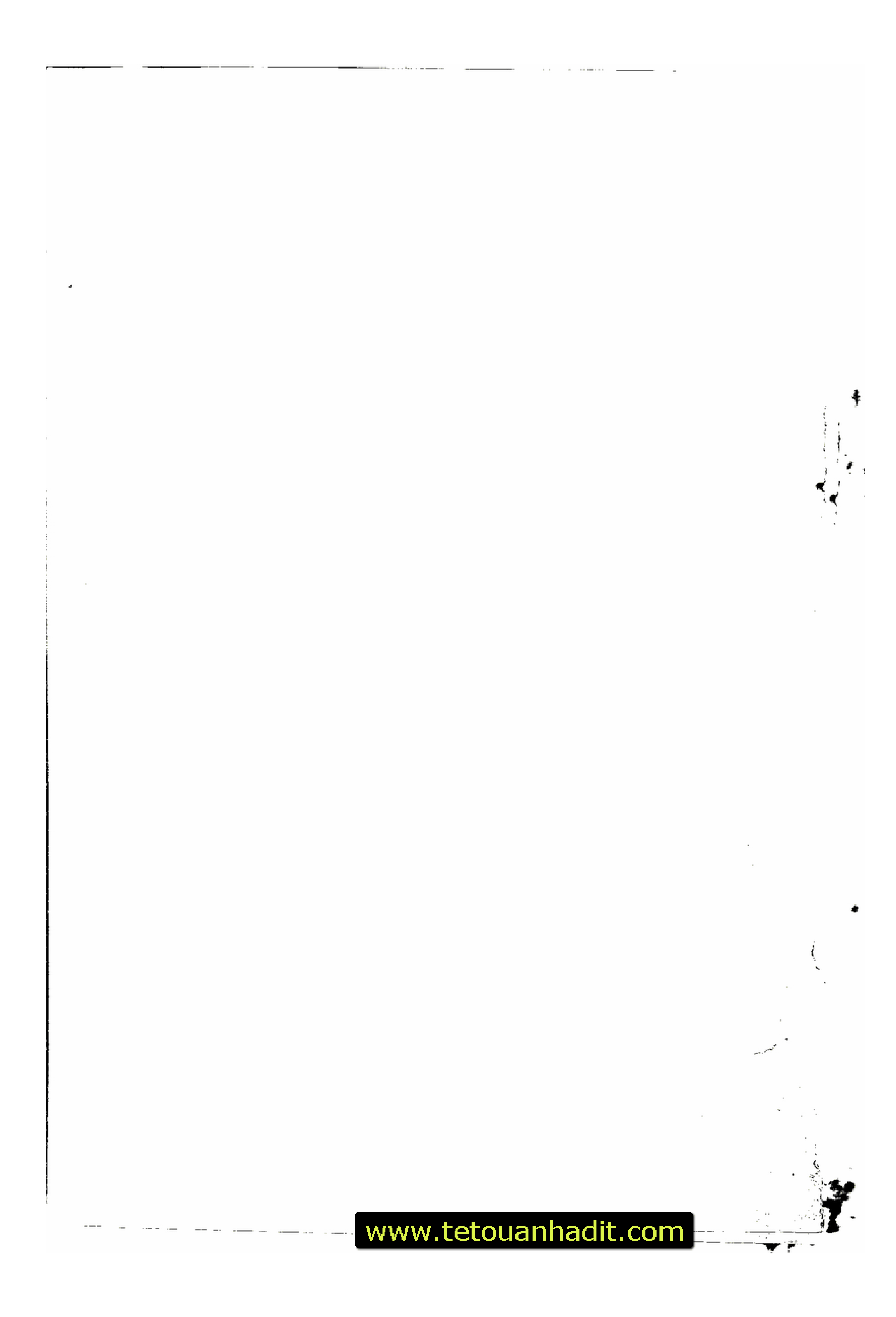
أحدث رجال الدين ضجة وذهبوا الى كارلوس الخامس يطلبون منه

ان يجعل حدا لاعتداءات الموريسكوس، ويقيم بغرناطة، ففي عام 1526 كون جمعية تتجول بالمملكة من رجال الدين وتدرس أحوال النصرانية عند المسيحيين الجدد وفعلا قامت هذه الجمعية بمهمتها وقدمت تقريرا لكارلوس الخامس، فاستدعى هذا جمعية اخرى من رجال الدين برئاسة قس لدس تقرير الجمعية التفتيشية، والشروط المعقودة بين الموريسكوس والنصارى سابقا، والمتفق عليها من قبل، بينهم وبين ثيسنيروس، وشروطهم أيضا مع ملوك النصارى السابقين، وبعد درس هذه الاشياء وتبادل الآراء قرروا ما يأتي: ما دام الموريسكوس يلبسون لباسهم ويتكلمون لغتهم، فمن المستحيل ان يتركوا مذهبهم ويصيروا نصارى حقيقيين فأمروا بأن يتركوا لغتهم ولباسهم وحماماتهم التي يفضلونها ويتركوا ابواب منازلهم مفتوحة ايام المواسم والأعياد، وفي يوم الجمعة والسبت لا يسمح لهم بإقامة الليالي بالغناء والرقص الموريسكيين ولا تخضب نساءهن أرجلهن وأيديهن ورؤوسهن ويتزوجن حسب ما تأمر به الكنيسة الكاثوليكية ويتركوا أبواب الدور مفتوحة أيام الأعراس ويحضروا الصلاة ولا يتركوا ابناءهم يقيمون علاقات مع البربر سواء الحر منهم أو المملوك.

لم ينفذ ما قدم حيث ان الموريسكوس ذهبوا عند الامبراطور يرجونه ان لا يوافق على ما قرره المجلس وبينوا له خطورة الحالة، وفعلا لبى رغبتهم ولم ينفذ ما قررته الجمعية قبل مغادرته غرناطة، ويقال انه بعد سنة 1530 عندما كان الامبراطور غائبا بعث زوجته لتوافق على مراسم ملكية بالنيابة عنه للرئيس الديني لغرناطة ورجال السلطة ولنفس الموريسكوس، ورأت الحالة المزرية التي توجد عليها نساء الموريسكوس بالقياس الى لباس النساء النصرانيات، فطلبت من



الاجراءات المتخذة في حق الموريسكوس من طرف كارلوس الخامس سنة 1534



الامبراطور ان يوقف تنفيذ هذه الخطة أيضا، وفي نفس الوقت كان الموريسكوس المتنصرين ببلنسية وأراغون وكاطالونيا يعاملون بلطف ولا يجبرون على ما كانت تريد ان تفرضه عليهم محاكم التفتيش من الأوامر من عدم قيامهم بواجبات الدين المسيحي كما هو المطلوب، فقد كان يشك في تنصيرهم، وزيادة على عمل رجال الدين هذا كان منهم من يعمل على تأسيس مدرسة في بلنسية للنصارى الجدد، ولكن تعليم الموريسكوس لم يعط نتيجة مرضية حسب ما قاله سانطو طوماس دي فيا نويڤا، فبحرية باربا روخا خير الدين وصلت غير ما مرة الى شواطئ بلنسية ومرسية تبعث الحماس في نفوس الموريسكوس ليساعدوهم في الحرق والسطو على القرى والمداشر البحرية، كل هذا كان يقلق رجال الدين ويذهب بمجهوداتهم أدراج الرياح في تعليم الموريسكوس، ونفس سانطو طوماس السالف الذكر التمس من الامبزاطور في عام 1551 بأن يهتم بقضية الموريسكوس المشردين كالأغنام بلا راع، لا نظام لهم ومازالوا "موروس" كما كانوا قبل التنصر يحتفلون ويقومون بشؤونهم على رأس الملأ بدون أن يعاقبوا على ذلك.

فيليب الثاني

فيليب الثاني من أعظم ملوك اسبانيا في القرن السادس عشر، كان أول عمل قام به في شأن الموريسكوس عند اعتلائه عرش اسبانيا هو تكوين جمعية دينية لدراسة قضية الموريسكوس، وقد أسند رئاسة هذه الجمعية الى القس ضون مارتيل دي ريالا، فاجتمعت ببلنسية في عام 1565، وفي نفس هذه السنة اجتمع مجلس آخر مكون من القسس لدراسة القضية، ويقول أحد أعضاء الجمعية :«ان المجهودات التي بذلت

في أربعين سنة في التبشير والتعليم لم تأت بأية نتيجة مجدية، فموريسكوس بلنسية ما زالوا موروس كما كانوا، لقد عومل المسلمون بكل قساوة في عصر فيليپ الثاني، فحرم عليهم في عام 1560 استخدام الرقيق وحمل السلاح ومنعوا من الاحتماء بداخل المملكة فرارا من الحكم الجائر وعدم حرية الدين، ولكن من بين هؤلاء كان يوجد من هو مسموح له بالبقاء وحرية العمل وخاصة في ميدان الصناعة والزراعة، لأنهم أدرى بغيرهم بهذا، مما جعل اشراف بلنسية يحتجون أمام السلطة على القرار الذي أصدر في حق طردهم.

ابتدأ البحث عن الأسباب التي يمكن بها التوصل الى طرد الموريسكوس، فصارت الملفات تفحص عسى ان يعثر على شيء يكون فيه ما يبرر طردهم، لأن الكنيسة رأت الشعب ضدها في معاملة الموريسكوس، لأنه العنصر الذي يعتمد عليه في أهم أمور الدولة كالصناعة والتجارة والزراعة وغيرها، ولما رأى الموريسكوس ذلك لجأوا الى الجبال فانضموا الى اخوانهم هناك يعيشون أحرارا على النهب وقطع السبل على المارة بعدما أعيتهم الحيل ولم يجدوا الطريق المؤدي الى حياة الهادئة السعيدة كباقي ابناء الإنسان، فكثرة الضرائب أرهقت كاهلهم، ورجال الجيش يرتكبون معهم من أنواع الظلم ما لا يوصف، ويضيقون عليهم أشد المضايقة بدعوى انهم يراقبونهم ويرتكبون في ابنائهم ونسائهم ما تقشعر له الأبدان، مما جعل نفس النصارى يستنكرون ذلك، فمن يرى هذا كله لا يستغرب في ما لجأ إليه الموريسكوس من الاعتصام بالجبال وبقية ما قاموا به، فلو عوملوا بالحسنى لكان الوضع غير ذلك.

عندما صعد موريسكوس بجبال كوادكس وباتا وألمرية وأخذوا بصحبتهم موريسكوس أخرين من غرناطة ودخلوا البيازين ثم خرجوا

فصاروا يأتون ليلا للقرى والمدن القريبة على غرة ويأخذون ما يقدرون عليه ويقتلون ما شاءوا. ان خانير يبالغ في الوصف فيقول :« كانوا يقطعون جسم الانسان ويخرجون قلبه الى غير ذلك فكانوا يأخذون النساء والأطفال ويرسلونهم الى افريقيا ليباعوا هناك. هذه هي الاشياء التي سببت في نشوء عداوة بين الشعبين المسلم والنصراني، ففي عام 1526 فرض قانون يقضي بانه بعد ثلاث سنوات يتعلم الموريسكوس اللغة القشتالية وعند انتهاء الاجل المحدد لا يسمح لأي موريسكس ان يتكلم أو يقرأ أو يكتب باللغة العربية جهارا أو سرا، وكل الرسوم أو العقود المكتوبة بعد التاريخ المذكور بالعربية تعد ملغاة لا يعمل بها، وكل ما هو موجود من الكتب يسلم في بحر مدة ثلاثين يوما الى رئيس محكمة غرناطة ليرسلها للبحث ويرد كل ما يمكن رده على أساس ان يحتفظ بها صاحبها داخل ثلاث سنوات فقط، ولا يمكن أن يلبسوا لباس المسلمين من جلابة وبلغة، وأعطوا رخصة بسنة واحدة لمن عنده لباس حرير ومازال صالحا فيمكنه أن يلبسه داخل التاريخ المحدد، وأعطيت نفس الرخصة بنفس التاريخ لمن له لباس مزخرف، وأعطيت رخصة سنتين لمن له لباس من الملف، وداخل هذا الأجل يلزم على النساء المسلمات أن يسيروا سافرات الوجه ولو بلباسهم، ولا يحتفلن في الأعراس حسب الطقوس الإسلامية ويتركوا أبواب دورهم مفتوحة أيام الأعراس والأفراح والحفلات، ولا يسمح لهم بإقامة ليالي موسيقية حسب عوائدهم وتقاليدهم، ويمنع استعمال الآلات العربية للموسيقى وللتغني بأغانيهم، ولم يكن فيه ما هو ضد النصارى، ولا يستعملون الأسماء العربية مع السماح لمن سموا قبل بها، ولا تتجمل النساء بالأزهار، ويؤمر بإيقاف عمل الحمامات وهدمها، ولا يسمح لهم بملك الرقيق.

لما سمع الموريسكوس قراءة المرسوم الملكي وما به من بنود اضطربت أحوالهم وقالوا ان صاحب الجلالة لم يرشد بإخلاص، وهذا سيؤدي الى تحطيم المملكة، فابتدأوا يعقدون الاجتماعات سرا وجهرا، وصاروا يبثون الحماس في نفوس الشباب، ويضربون لهم أمثلة الشهامة والنخوة بالشيوخ، فكونوا جمعية لتذهب لمقابلة الملك واعضاء مجلسه يرجونه إيقاف تنفيذ ما أصدره من أوامر، وفعلا ذهبوا عند فيليب الثاني وكان عنده فرانثيسكو مونيث مولاي وهو شخصية مرموقة من الموريسكوس، وله خبرة ودراية واطلاع واسع في شؤون الأحكام، فتكلم هذا مع رئيس المجلس بدرو ديثا يشرح له في خطبة وهو يرتجف - الاضرار والاجحاف بالحقوق التي لحقت بالشعب المتنصر، ولكنهم لم يحصلوا على طائل، فأجابهم الرئيس ان ما صدر هو عدل وحق، وقد درس بإمعان، فعليهم بالامتثال لئلا تذهب ثروتهم أدراج الرياح، ولا يسمح لهم بالمجيء الى القصر مرة أخرى من أجل هذا، فقد وقع معهم تسامح من قبل واعطيت لهم شروطا ولم يراعوها، لأن رغبة صاحب الجلالة هي ان يكونوا نصارى طيبين ويبرهنوا على ذلك، ويقول بعض المؤرخين انه ذهب الى المجلس الملكي الماركيس دي مونديخار للعمل فيه ليمكنه ان يوقف تنفيذ ما أصدر، لاتقاء المشاكل التي تهدد سلامة الملك، ولكن نفذ موقف بدرو ديث وامروا الماركيس المذكور بالرجوع الى غرناطة لتسهيل تنفيذ ما اصدر من تحطيم الحمامات في أقرب وقت ممكن، ويقول خانير ان تحطيم الحمامات عند المغاربة (يعني الموريسكوس) هي أعظم جريمة عندهم، وينادي بمنع الخياطين من خياطة الملابس الموريسكية، ولا يتابع استعمال العربية في العقود والاتفاقات التجارية أو غيرها ابتداء من نهاية السنة، وطرد كل من لا يسكن

بالمدينة للرجوع الى بيته وإرسال الأطفال ذكورا وإناثا لتسجيل اسمائهم ليلحقوا بالمدارس النصرانية لتعلم اللغة الاسبانية والدين المسيحي، ويجري هذا على كل من هو من الجنس المتنصر، غير انه بعد مدة قليلة نجد ان عرض فيليب قد اختل على يد نفس معاونيه يقول خانير: ان شعبا مهانا في لباسه، في ثروته، في دينه الذي ألفه بل حتى في حياته مهدد على الدوام كشعب الموريسكوس، لا يستبعد بان ينهض للدفاع عن شرفه بالشجاعة التي ورثها عن آبائه وأجداده ولو يعلم انه سـ ـموت.

وافق فيليب الثاني على تنفيذ ما أصدره ولم يتراجع رغم استعطافات الموريسكوس كما قدمنا فلم يجد الموريسكوس ملجأ أمامهم إلا ملجأ القوة والعنف فصاروا يبعثون الحماس في نفوس الناس للانتقام واغتنام الحالة النفسية للغرناطيين المضطربة وأهالي البوخارة (البوشارات) الذين كانوا على الدوام متشوقين للأخذ بالثأر من القوانين الشديدة التي صدرت خاصة بهم، فأصبح كثير من المسلمين متعطشين للانتقام واضرام نار الثورة في المملكة كلها، وان يهجموا على البيازين في ليلة 25 من ديسمبر ليفسحوا المجال لدخول ثمانية آلاف ممن سجلوا أسماءهم لهذا الغرض من القرى وأمكنة في ارخيفا ولا كرين لقتل النصارى وحرق المدينة، وقبل ان يشرعوا في هذا العمل ذهب منظمو الثورة وبحثوا عن بقية الكتب التي نجت من نار ثيسنيروس والتي تعلق بالمسائل الفلسفية والفلكية التي تشرح غوامض الأمور وتنبؤات المستقبل ليستعينوا بها على تشجيع العامة ومنهم من صار يؤكد للناس انه رأى في السماء نجوما تسير واشباحا غريبة تظهر بالليل وجيوشا مسلحة ومعارك حامية وقس على هذا مما جعل العامة

يعتقدون في ذلك اكثر من اعتقادهم في الحقائق الدينية، وقد صدر في هذه الاثناء الى علم المتهيئين الى الثورة بان جماعة من المنفيين قتلوا بعض المبشرين والقضاة وذبحوا خمسين من رجال دييگو دي اريرا وخوان ارطادو في بيوتهم.

أصبحت الحالة حرجة وخاصة في غرناطة، ومما زاد الحالة خطورة ان بحرية فيليپ الثاني كانت متفرقة في نواحي بعيدة وحصونه غير معززة بالجيش والشواطئ مكشوفة وخاصة شواطئ الأندلس التي هي موقع الثوار.

لقد عرقل وصول الموريسكوس لأسوار غرناطة في الموعد المحدد الذي هو 25 ديسمبر عام 1568 كثرة الثلوج المتراكمة في جبال نقادا، وكانوا قد أشعروا بذلك ولكن كان قد وصل الى البيازين زعيمهم أبو الفرج على رأس جماعة من المجاهدين يوقظ الناس وينادي بأعلى صوته «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ورنين السلاح يتردد في الآذان ولكن النصارى صاروا يقرعون نواقيس الكنائس طلبا للنجدة، فرجعوا من حيث أتوا بالخيبة، ولكن رغم هذا شاع الخبر فاستعد الماركيس دي مونديخار للأمر وجمع السلاح والجيش وطلب الإعانة من الملك وأرسل جواسيسه في كل النواحي ليستطلع الخبر.

حرب البوشارات وأسبابها

البوشارات ويقال لها بالإسبانية البوخاراس هي جبال بنواحي غرناطة يطلق عليها اسم جبال البوشارات وهي جبال شاهقة وممتدة سلسلتها الى البحر الأبيض المتوسط وبها أدغال وأودية، لذلك اختارها

الموريسكوس معقلا لثورتهم الحربية.

كان أهالي البوشارات يتشوقون دائما الى اليوم الذي يعلنون فيه الثورة على النصارى ليتخلصوا من نير الاستعباد، وينظرون الى غرناطة التي يشرفون عليها بشوق وتلهف ويمنون أنفسهم بالعودة إليها لإقامة ملكهم الضائع بها من جديد، فلهذا كانوا ينتظرون باستمرار الفرصة السانحة لتحقيق رغبتهم والوصول إليها.

بعدما أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية الإسلامية للموريسكوس وجعلهم نصارى حقيقيين لجأوا الى طريق العنف وسياسة الحديد والنار، فحرموا على الموريسكوس التكلم بالعربية والاتصال بالمسلمين بالمغرب بل وبمقاطعات أخرى باسبانيا، وحرموا على النساء الخروج الى الشارع محتجبات وقفل أبواب دورهن، وتحطيم الحمامات، وإقامة الحفلات والأعراس حسب تقاليدهم كما قدمنا سابقا. كل هذه الاشياء كانت الداعية الى إثارة هذه الحرب، وحرب البوشارات هذه هي أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة، كانت هذه الحرب في سنة 1568 وكان يتزعمها أحد الموريسكوس المتنصرين ظاهريا يدعى فرناندو دي فالوا وسمي بعد بمحمد ابن امية كما سيأتي ذكره.

كيف بدأت هذه الحرب ؟

لقد ذكرنا الأسباب الداعية الى إثارة هذه الحرب، والآن نذكر كيف هيأت الوسائل التي اتخذت لها بعدما وافق فيليب الثاني على تنفيذ ما أصدره من أوامر تنص على تنصير الموريسكوس بالقوة وإجبارهم على ترك عوائدهم، لم يجد الموريسكوس بعد هذا أمامهم وسيلة ومخرجا إلا

مخرج القوة، فصاروا يبعثون الحماس في نفوس الناس ويشجعونهم على القيام بالثورة، ووجهوا أهميتهم كلها الى الغرناطيين الذين كانوا ينتظرون دائما الفرصة لذلك، واتفقوا على ان يقوموا بهجوم على البيازين ليلة 24 دجمبر الذي هو عيد النصارى، الذي يكونون فيه على غير استعداد لمقابلة المهاجمين كما قدمنا آنفا.

الموريسكوس ينصبون ملكا

انقسم المجاهدون أو من تقلدوا الأمر من الموريسكوس لمحاربة النصارى، وعلى رأسهم أبو الفرج الى فئتين، فكانت مهمتهم الأولى بعث الحماس وإذكاء روح الثورة في نفوس أهالي جبال البوشارات تمهيدا للقيام بالعمل العسكري، ومما جاء في كتاب "المؤلفون الإسبان" ان كثرة الاضطهاد وتنوع أساليبه واستمراره أحدث في نفوس المسلمين تأثيرا شديدا، فمنهم من كان لا يفكر إلا في أخذ الثأر بدلا من اتقاء الشر، حتى انهم كانوا في بعض السنوات يفكرون في تسليم الدولة (يقصد الاسبان) إلى الأمراء المغاربة أو الأتراك الذين كان الموريسكوس يعلقون عليهم الآمال، غير ان قوة المغاربة إذ ذاك كان نجمها قد أفل بينما قوة الاسبان كانت قوية، ثم انها - أي قوة الاسبان - كانت تملك قواعد عسكرية بالشاطئ نفسه كسبتة، اما قوة الاتراك فقد كانت بعيدة عنهم، فكانت قرصنتها بالجزائر لا تعمل إلا لحسابها الخاص، والمساعي والمخططات التي كان يهيئها ويديرها الموريسكوس، كانت تصل الى الاسبان بواسطة جواسيسهم، فعملوا على فصل بلنسية عن غرناطة، حيث ان الاولى كانت مسلحة ومجهزة أحسن من الثانية وغير مجروحة العواطف، ولما وصل الى علم النصارى ان المسلمين مقبلون على أمر لا

تحمد عقباه اوقف النصارى القدماء التجارة وحرموا الطريق المؤدية من غرناطة الى الشواطئ، ولما رأى المسلمون ذلك اجتمع بعض رؤسائهم في مكان يسمى كاديار بين غرناطة والبحر ونهر المرية عند مدخل البوشارات واتفقوا على ان العمل يكون بيد النصارى كلهم في الكنائس وليس في البيوت إلا الماء، وليس أحد مهيأ للدفاع، فاجتمع أربعة آلاف رجل من البوشارات والبيازين ليدخلوا المدينة والحمراء قسم من الباب وقسم يتسلق الاسوار، وكانوا يعلمون ان الحمراء لابد وان تطلق مدافعها لذلك اتفقوا مع موريسكيي فيكا عند سماعهم للطلقتين الأولتين من مدافع الحمراء أن يأتوا الى المدينة ويكسروا ابوابها ويشعلوا النيران فيها ويحطموا بالحديد والنار كل ما يعترض سبيلهم، ولكن قبل ان يقدموا على عمل خطير كهذا أرادوا ان يتحققوا من مقدرة الشعب ومدى استعداده، فبثوا جواسيس منهم يتطلعون لما يختلج في نفوس بعضهم، فصار المتزوج يتجسس على المتزوج، والأعزب على الأعزب والأرمل على الأرمل، وقد طلبوا قبل ذلك مساعدة من أمراء المغرب، كما طلبوا قبل ذلك بسنوات مساعدة من الخليفة العثماني بالقسطنطينية، وكذلك طلبوا مساعدة بحرية من ملك الجزائر، فكانوا في حاجة الى خبراء وكانوا يستعدون الاستعداد اللازم لهذه المغامرة كما كان من المتحتم شراء أسلحة جديدة واختيار مكان لائق بالجبال ليضعوا فيه مصانع للسلاح الجدي، وما كان عندهم من سلاح قديم مخبأ من مدة طويلة، وأعلموا بهذا ملوك الجزائر وفاس.

بعثوا عيونهم في كل المملكة يتحققون من قوتهم المسلحة وكل جاسوس كان يمشي بصفة متسول ليعرف الطريق الى الأماكن التي يمكن لهم أن يسلكوها لقتال اعدائهم تكون أكثر ضمانة وأقرب اليهم وأكثر

ـمرا، ويعرفون من هو مسلح في المملكة، وجعلوا كل من عمره 25 و 38 سنة مطالبا بالحرب رجلا كان أو امرأة.

علم النصارى بما يدبر في الخفاء من طرف الموريسكوس، فابتدأوا يتخذون الاحتياطات اللازمة، فتهيأت محاكم التفتيش وتهيأ المتسولون للعمل، فكان الماركيس دي مونديخار على رأس هذا كله، فاستدعي لمدريد من قبل الملك بصفة خاصة، فذهب في عربة خيل مع لجنة من مساعديه، وكان أول عمل فكر فيه هو الإكثار من حرس المملكة، ولكن ظهر له فيما بعد ان ما هو موجود فيه كفاية، اما من سينخرط من بعد في الجندية ينضم الى القوة البحرية التي تعمل ضد المغاربة البربر، وكان تحت أوامر الماركيس المذكور الرجال والسلاح.

لم يقم النصارى بمعركة واسعة النطاق ليحسموا الداء من أصله قبل أن يحركوه فيظهر للوجود، وبذلك يمكنهم معرفة محله. هذه كانت خطتهم. رأى الموريسكوس حركة النصارى، وسفر المسؤولين منهم الى مدريد فعلموا ان شيئا يدبر لهم في الخفاء، فخشوا من أن يأتي على حين بغتة، فلم ينتظروا النجدة بل أرادوا ان يسرعوا في العمل، مكتفين بإعلام المغاربة بواسطة البحرية القادمة من الجزائر وتطوان بعلامات معروفة بينهم، فأتوا رؤساء المراكب بشمعة حمراء (اصطلاح كان معروفا لديهم في ذلك الوقت)، وجعلوا بحرية تطوان تعرج على شاطئ ماربيا لترفع من معنويات سكان جبال رونda وارض مالقة، وبحرية الجزائر تعرج على رأس كاطا لمساعدة أهل البوشارات ونهر ألمرية والمنصورة وبث الحماس في نفوس سكان مملكة بلنسية الهادئين.

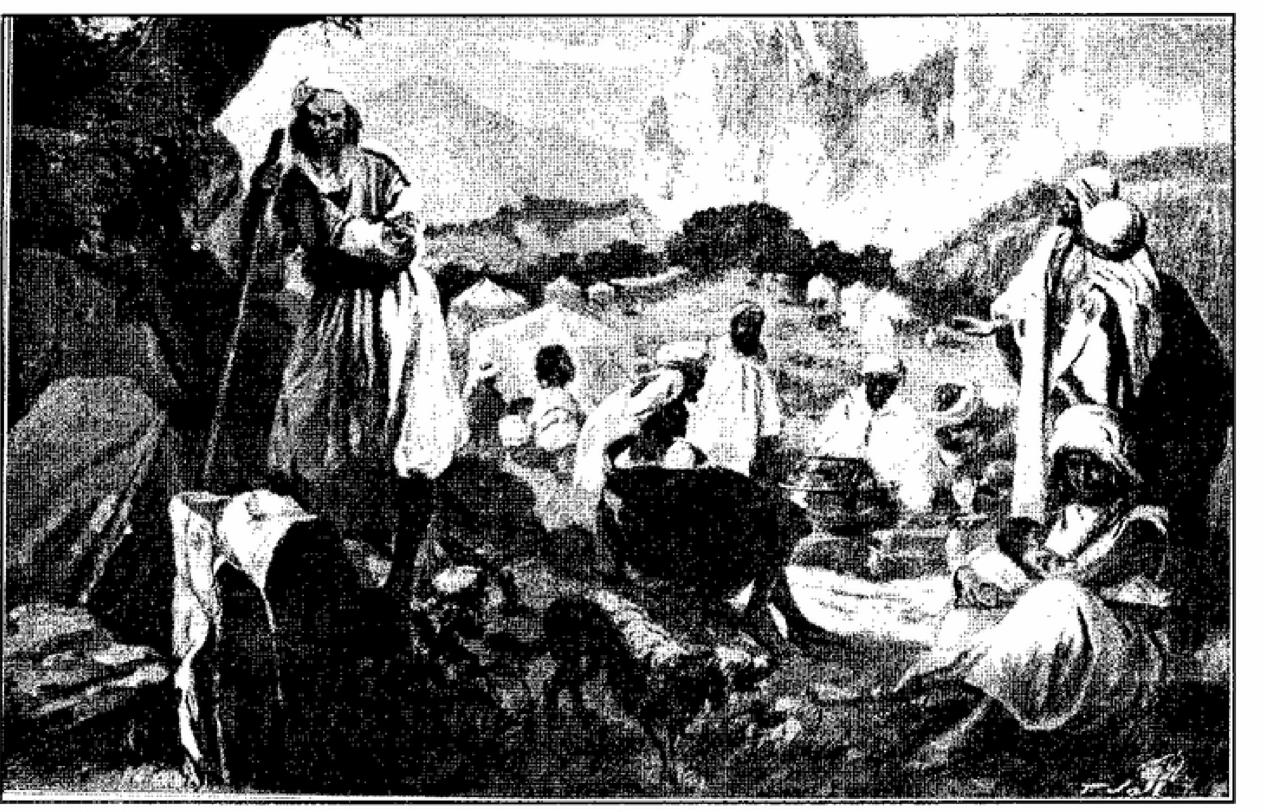
كان من الواجب أن يكون لهذه الحركة رأس يديرها ويلتف الناس حوله، فمنهم من كان يريد أن يعين رئيسها من قبل ملوك الجزائر ولكن

استقروا في الأخير على تنصيب أحد منهم ملكا يكون من نسل ملوك الأندلس السابقين، واشترطوا أن يكون قد لحقه الأذى والإهانة من النصارى كباقي أبناء جنسه، فوقع اختيارهم على شخص كان يدعى بالاسم النصراني فرناندو دي فالور وكان يلقب بالصغير وابن جوهر من نسل ابن امية ملوك الأندلس وكان ينادى بين الموريسكوس "ابن أمية".

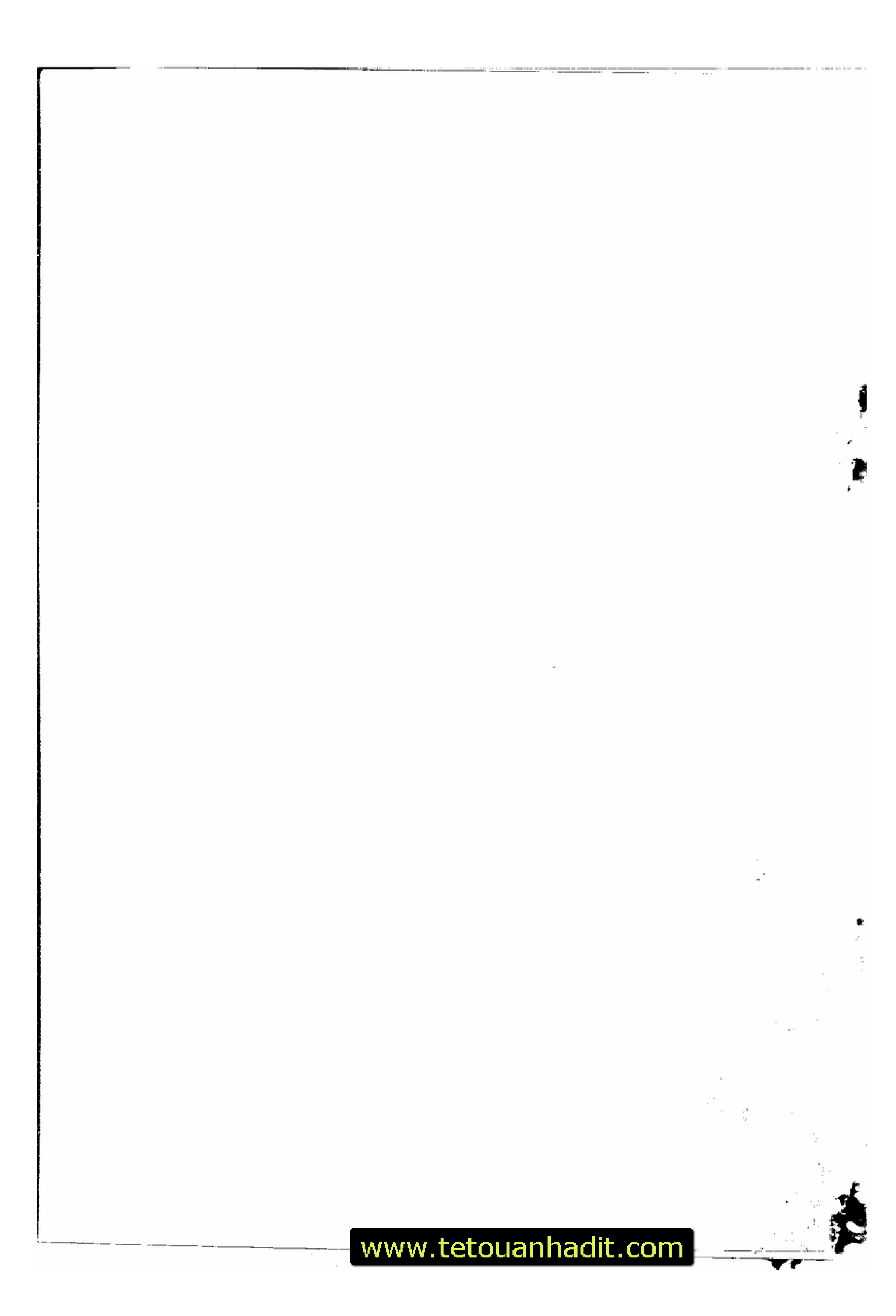
محمد بن أمية

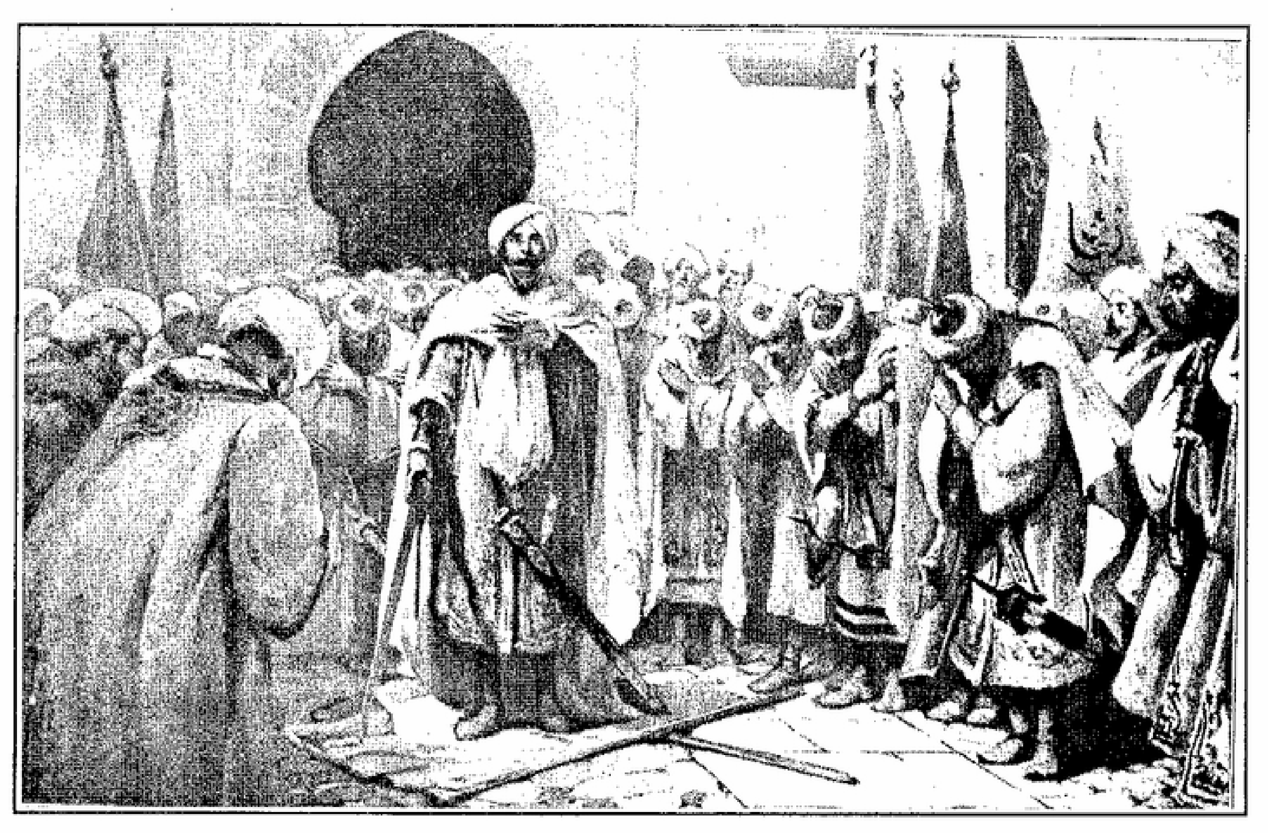
نصب محمد ابن أمية ملكا على الموريسكوس بجبال البوشارات في 27 شتمبر 1568 - كان فرناندو دي فالور أو محمد ابن أمية يتمتع بنفوذ واسع بين الموريسكوس وصرامة وقوة، خبير بالقانون وبشؤون المملكة، فاجأت هذه البيعة ابو الفرج الذي كان هو الرئيس الفعلي ومنظم الحركة، يصف خافير ابو الفرج بأنه رجل حرب، قاسي القلب جمع حوله لأول مرة ثلاثمائة شخص مثله، وارتكب من الجرائم ما يعجز القلم عن وصفه، ثم يقول خافير أيضا: ولقد أذاق ابو الفرج النصارى القدماء أنواعا من العذاب ما لا تتحمله الجبال الرواسي، كما اذاق الذين يسكنون في الأراضي التي جل أهلها من الموريسكوس وخاصة في مملكة غرناطة وجبال البوشارات. ويقول خافير أيضا: ان أول ما فعله محمد ابن أمية - بعد تنصيبه - ملكا- أنه رفع علما عليه هلال (لم يذكر لون العلم واظنه أحمر) وعين بحذاقته السياسية ابو الفرج وزيرا للعدل، فأعطى بتعيين هذا الشخص قوة لحركته وخطب فيهم بتصرف: «لقد أصبحنا مطرودين من رحمة الجميع، فلا النصارى يعاملوننا كنصارى، ولا المسلمون ينظرون إلينا كإخوان لهم ويساعدوننا فلا يكلمنا أحد، ولا

يعاشرنا أحد، يمنعوننا من ان نتكلم لغتنا، ونحن لا نعرف القشتالية، وبأي لغة يا ترى يمكن لنا ان نتفاهم ونتعامل مع الناس؟ فانهم يمنعوننا ان نخاطب حتى الحيوانات بلغتنا، يعلمون ابناءنا فنونا قد حرم كبراؤنا منها، ويجعلون من يتبع القانون جريمة، وكل ساعة يهددوننا وينزعون ابناءنا من ايدي أمهاتهم وآبائهم، ويرسلونهم بعيدين عنا لينسوا نوع المعيشة التي نعيشها ويتعلمون بان يصيروا اعداء لابنائهم، ويعلمونهم في مدارسهم، ويمنعون حتى لباسنا العربي، ويجبروننا على استعمال اللباس الفرنجي مع انهم يلبسون ألبسة مختلفة، فالألماني والفرنسي يتزي بزيه، والرهبان والشباب والشيوخ كل واحد بزيه الخاص، وكلهم نصارى، ونحن الموريسكوس نحتفظ بعقيدتنا في القلب لا في اللباس (حسبما يظهر انهم اظهروا النصرانية ولكنهم بقوا بالزي الإسلامي) فماليتنا ليست كافية لشراء الملابس، وما عندنا لا يشتريه منا أحد، فإذا صرفنا ما عندنا لشراء الملابس فبأي شيء نعيش؟ إذا أردنا أن نتسول لم نجد من يتصدق علينا كفقراء معوزين، إننا أغنياء ولكننا محتاجون، ولا يوجد من يعيننا، اننا موريسكوس نشعر بالبؤس والذل والإهانة، لان المسيحيين يعتبروننا خارجين عن الانسانية. فأجدادنا بقوا فقراء من جراء الحروب ضد قشتالة، فعندما تزوجت بنت عمدة لوخا من القبطان الطار بقي مدينا لبعض الناس - ويوجدون هنا- الذين اعاروه بدلة لحضور حفلة الزفاف، في أي وقت وفي أي زمن وبأية معاملة وأية صناعة ستكون عندنا حتى يمكن لنا ان نغير زيا بآخر؟ نزعوا منا الرقيق الاسود ومنعوهم من ان يخدموننا بعد ما اشتريناهم وعلمناهم وربيناهم، والبيض لا يسمح لهم بخدمتنا لانهم من دولتنا، ماذا يفعل من ليس لهم أولاد يخدمونهم ولا ثروة لدفع رواتب الخدمة لهم اذا مرضوا أو

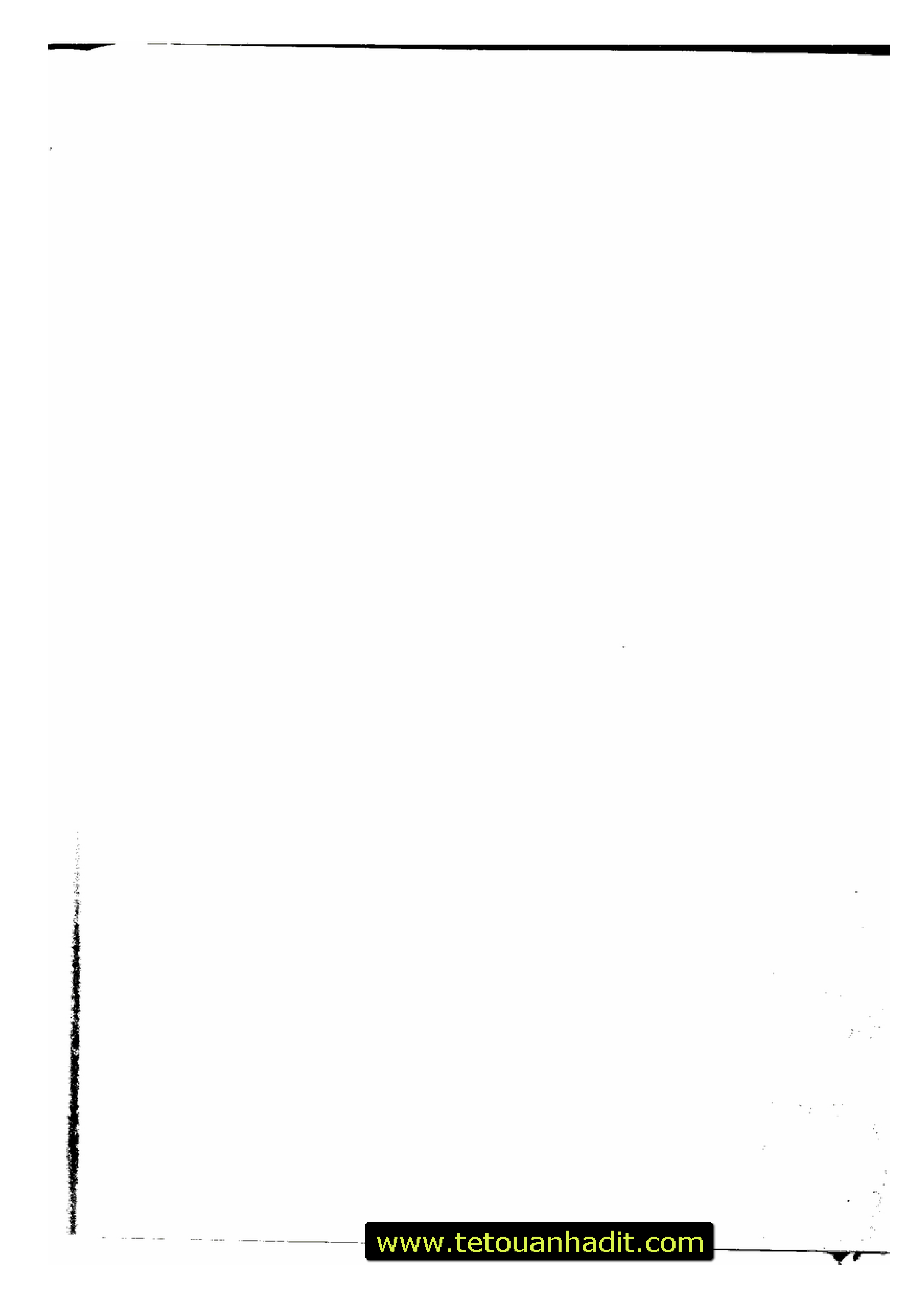


لوحة تمثل عصيان موريسكيي بلنسية سنة 1526





صورة تعبيرية لفرناندو دي فالور (محمد بن أمية) عندما توج ملكا على الموريسكوس.



عـجـزوا أو عطبـوا أو حـضـرتـهم المـات؟ ان نـسـاءنـا وبنـاتنـا يمشـين محتجبات الوجه، فكيف يقمن بالعمل؟ هل نأمرهن بأن يمشين سافرات الوجه حتى اذا نظر اليهن تقع الفتنة ويصرن مملوكات للذي يقع عليهن نظره؟ كما يصرن معرضان لسفاهة الأشرار من شباب وشيوخ، يأمروننا بأن نترك أبواب بيوتنا مفتوحة، الشيء الذي كان أجدادنا يحافظون عليه لكثرة تمسكهم بالدين، وليس ابواب الدار فقط، بل حتى نوافذها، انهم يأمروننا بهذا كله ليمكنهم ان يصلوا الى بيوتنا وأملاكنا وعرضنا للأشرار وسفهاء القوم، ويرقبون الساعة والفرصة التي يأتون فيها بل حتى ملاهينا ومسلياتنا، ويتدخلوا بالقوة وبأمر الحكومة في سرورنا ونشاطنا في زفافنا وفي سهراتنا ورقصاتنا وموسيقانا واكلنا بل حتى في نظافتنا التي هي ضرورة للصحة (كانوا يمنعونهم من الاغتسال لأنه مفروض على المسلمين) كيف تعيش نساؤنا بدون حمام وهو عادة قديمة عندنا؟ ألم تروهن في البيوت حزينات قذرات مريضات فالنظافة تورثهن السرور وتحافظ على الصحة واللباس.

صار ابن أمية يشد العزائم ويحفز الهمم باستعراض المشاكل السياسية الموجودة بين النصارى أنفسهم، مثل مشكلة وقعت بين إيرخاس والنصارى في فرنسا وثورة فلاندس والاتهامات الملصقة بالانجليز والفلامينك يهربون طالبين المساعدة من أمراء ألمانيا، ويستطرد قائلا: إذا كان هذا الخلاف ناشبا بين النصارى أنفسهم فما بالك بين النصارى والمسلمين، اذ يجب اغتنام الفرص، ثم يقول: ان الملك ينقصه المال ورجال اكفاء، وان سلاح المراكب رديء وإن الغوغاء أحرار، وليست غرناطة وحدها التي عليها أن تنهض وتثور، بل قسم من الأندلس الذي كان عند اجدادكم وهو الآن تحت حكم اعدائكم، يمكن لكم ان

تحـتلوه في الكرة الاولى، واثبتـوا في امـاكنكم، ثم بين لهم المزايا الطبيعية للبلاد التي تفيدهم من الناحية العسكرية فيقول: جبال منيعة وأودية عميقة وسلاسل شاهقة وطرق ضيقة وعرة وشعاب بدون مخرج، وان هذه الحركة قد تنبأوا بها قبلنا، واننا سنعيد مجدنا وأرضنا، ثم صار يتفاءل بالخسوف الذي وقع، وحركات النجوم الغير عادية التي ظهرت في تلك الايام، ثم اختاروا أول السنة الهجرية للقيام بثورتهم.

مبايعة محمد بن أمية

جاء في مجموعة "المؤلفون الاسبان" ان محمد بن امية بويع في حفل قد اجتمع فيه المتزوجون في جانب، والأرامل في جانب أخر ومن هم على وشك الزواج مع خطيباتهم في جانب، ثم قرأ أحد الفقهاء التنبؤات بان هذه الحركة ظهرت في النجوم وانه سيصل وقت يجدد الله فيه لهذه الامة عزها على يد شاب من سلالة الملك، والبس محمد بن امية جبة ووضع في عنقه قلادة حمراء ثم اربعة اعلام في الارض يشيرون الى اربعة أقسام الدنيا، وأدى صلاة انحنى أثناءها على الأعلام ووجهه لناحية المشرق وأقسم انه سيموت من أجل شريعته ومملكته ومن أجل رعيته وعندما رفع رجليه من المكان الذي كان واقفا به جاء ابو الفرج وقبل مكان قدميه كعلامة على الطاعة والولاء، نيابة عن الجميع، ثم رفع محمد بن امية على كتفيه ونادى: الله ينصر محمد بن امية ملك غرناطة وقرطبة. يقول مارمول في كتاب "المؤلفون الاسبان" هكذا كانت تختار وتتوج قديما ملوك الاندلس وملوك غرناطة من بعد.

بعث منظمو الثورة رسائل الى رؤساء الجماعات التي انضمت اليهم يعلمونهم فيها باليوم والساعة لتنفيذ الخطة، ثم عين ابن امية

(الملك) قائدا عاما ابن عمه ابن جوهر الذي خرج الى كاديار حيث كان بيته وأملاكه، وقدم القبطان اريرا ونزل قرب غرناطة لينام الليلة بكاديار ومعه اربعون فارسا، فرأى ابن جوهر ان الفرصة سانحة للانقضاض على النصارى، فأوصى الجيران بان كل واحد يقتل ضيفه، وفعلا نفذت المؤامرة بكل سهولة بسبب قلة السلاح الذي كان بيد النصارى، والتعب المستولي عليهم، وشرب الخمر، فاستولوا على معقل بسلسلة الجبال بدون ان ينتظروا إعانة من المغرب أو غيره. كانت هذه هي الخطوة الاولى من الناحية الحربية.

ويقول خانير: ان أول ما فعله الموريسكوس -بعد اعلان محمد بن امية ملكا عليهم- هو نبذ الاسماء والألقاب النصرانية وإبدالها بالاسماء والالقاب الاسلامية، ويصرحون بأنهم "موروس" بعيدين عن المسيحية بعد ما ظلوا سنين عديدة وأجدادهم معتنقين لها.

بعد قيام الموريسكوس بالثورة، صاروا يعذبون الرهبان ويحطمون الصلبان وينهبون الكنائس ويحرقونها "ولا نريد ان نذكر كل ما قاله خانير، حيث ان الرجل يكتب بروح مسيحية، غير ان كل ما نقوله ان المسلمين كان قد بلغ بهم السيل الزبى، فلا يستبعد والحالة هذه، ان يصدر منهم ما صدر، وخاصة من الغوغاء والجهلة، ويقول خانير ايضا: إن ما فعله رجال من الروم المستندين امثال نيرون وغيره. لم يكن شيئا يستحق الذكر امام ما فعله الموريسكوس، ولم ينج إلا القليل ممن اعتصموا ببعض الحصون، ينتظرون الاغاثة من غرناطة، ويقول خانير أيضا: ان شجعانهم من نسل اولئك الشجعان الشرفاء الذين فتحوا

اسبانيا وتوغلوا في فرنسا، وأبوا إذاية واحتقار أهالي البلاد الذين غلبوا على أمرهم، وكانوا يدينون بالولاء للملوك النصارى، وحاربوا ضد الملوك الكاثوليك بشجاعة ومروءة، هم من نسل اولئك الفاتحين لسوريا ومصر وافريقيا وفارس واسبانيا، كانوا من اولئك الذين حاربوا من اجل توطيد عرش بدرو الثالث لأراغون وكارلوس الخامس، لقد تحول هؤلاء وانقلبوا الى سفاكي الدماء.. انتهى كل هذا وذهب هؤلاء الى الجبال، وأخذوا معهم كل ما قدروا عليه من متاع وغير ذلك، وصحبتهم عائلاتهم وعمل ابن أمية على إيقاف الحرب ومنعها بتاتا، وابتدأ ينظم ملكه، فنظم قصره الملكي على الطريقة المعهودة بإدخال الحريم، وعين قوادا، وصار ينظم الرجال بنظام عسكري، وطلب النجدة والاعانة من مغاربة افريقيا، فبعث للجزائر أخاه عبد الله مع هدايا من الرقيق ومع سفارة ثانية للحباكي(1).

عمت هذه الحركة جميع مسلمي اسبانيا، فخرج لقمعها الماركيس دي موندیخار، وذلك في يناير سنة 1569، ولكن خروجه كان من أجل اغاثة أهالي ارخيفا المهددين من طرف جيش المسلمين، فاصطدم بقوة من الموريسكوس عدد جندها ثلاثة آلاف وخمسمائة في جسر طلابلاطي، ووقع قتال عنيف في الأماكن المأهولة بالموريسكوس، مثل كاديار واندارکس وأماكن أخرى ضيقة في الجبال، ويقول خانير: انه مات عدد كبير من المسلمين رجالا ونساء، ويقول ايضا ان موت النساء كان خطئا، حيث

(1) يبدو أن الحباكي هذا كان واليا على الجزائر من قبل الأتراك.

انهم اشتبكوا في القتال في ظلام الليل، وظنوا ان النساء هم رجال متلبسون بزي النساء، واما الاسرى فيقول كان قد وصل عددهم الى ثلاثمائة رجل وعدد من النساء.

بعدما رأى ملك النصارى ما وقع، بعث أخاه ضون خوان دي اوستريا لمحاربة الموريسكوس، يصحبه جيش قوي من خيرة قواد الملك واللفيف الاجنبي، ودخل غرناطة فقوبل بالترحاب من النصارى وخاصة من النساء الأرامل اللواتي فقدن ازواجهن في هذه الحرب، تقوي الحماس في نفس ابن امية بعد المساعدة التي مدها به بعض الاتراك، ووعد اصحابه بمساعدة بحرية كبيرة من قبل علوش على حاكم الجزائر، ولا ننسى ان ابن امية كان محاطا بالحساد، ومن يريدون به شرا، وخاصة وزيره ابو الفرج الذي كان يريد الملك لنفسه، ولقد ابلى ابن امية البلاء الحسن في الحروب ضد النصارى، إذ كان شجاعا يحارب بأقل عدد وعدة ضد الماركيس دي لوس فيليس الذي خلف الماركيس دي مونديخار في مهمته، وكان النصارى يأسرون المسلمين ويعذبونهم ليقولوا لهم ما يفعله ابن أمية، ولقد أبلى المسلمون وخاصة البربر منهم بلاء حسنا، ووصلوا الى نفس المكان الذي عسكر فيه الماركيس المذكور.

أما في غرناطة فكان خوان دي اوستريا مهيئا جيشا قويا للمعركة المنتظرة، وفي نفس الوقت كلّف أخاه بأمر من الملك بطرد عائلات الموريسكوس التي بقيت هادئة بغرناطة، وفعلا نفذ هذا الامر بكل سرعة وشدة، ولم يدع بأماكنهم إلا الاتباع من المدجنين. ويقول مارمول: «كان منظر الموريسكوس مؤلما وهو يغادرون بيوتهم وأملاكهم ووطنهم وهم يبكون نساء ورجالا ،شبابا وشيوخا، بل ولم يعلموا الى أين مصير حياتهم» ثم يقول: انه لمن المحزن حين كان يمر الإنسان بأحياء

الموريسكوس فيجدها خالية يخيم عليها الهدوء والحزن والكآبة، بعدما كانت عامرة يغمرها النشاط والحياة.

دارت الدائرة على الموريسكوس فهزم النصارى جيشهم الذي كان عدده خمسة آلاف رجل تحت قيادة حسين، وهو قائد تركي "والصغير" (عم ابن أمية الملك) وجماعات اخرى من الجيش، حاولت إبعاد جنود النصارى من وخيخار قد هزمت أيضا، ولكن هذه الهزائم لم تجعل نجم المسلمين يأفل، فالحرب ما زالت سجالا، ولكن حادثا طارئا، هو الذي ذهب بآمال الموريسكوس، وفت في عضدهم، انه موت ابن أمية "الملك" وسبب ذلك ان ابن أمية أحب امرأة شابة أرملة صديقه أحد الموريسكوس يدعى ALGNACIL. مات ابن أمية مخنوقا على يد أصدقاء ALGNACIL . فقسموا نساءه ونهبوا أمتعته، وهكذا فوجئ ابن أمية بموت لم يكن يحسب لها حساب، ولم يتمتع بملكه طويلا، ولم يحقق ما كان يريده لشعب الموريسكوس. كان عمر ابن امية إذ ذاك أربعا وعشرين سنة، لحيته خفيفة، ولونه أسمر، وأعين سود كبار، وجسم مربوع، وكان يظهر عليه انه من دم نبيل، وذو أفكار سامية.

لم يترك الموريسكوس الحالة فوضى بعد موته، بل عينوا في الحال من يتزعمهم في حربهم ضد فيليب الثاني كخليفة لابن امية، فوقع الاختيار على ابن عبو، ويظهر ان هذا لم يكن من المخلصين لابن امية. ووزع [illegible] بين أصدقائه، فدعا المتطوعين للجيش والجندية من أتراك وبربر [illegible] جمع نحو ثمانية آلاف مسلم مزودين بأسلحة نارية، وبهذا العدد استطاع ان يهزم جيش الدوكي دي سيسا الذي أتى لانقاذ LA VILLA YLNXTE DE ORJIVA. وكان هذا الجيش يترأسه ويديره قواد محنكون. وبهذا [illegible] استطاع ان يصل الى سهول غرناطة ومزارعها ولما رأى

النصارى انتصار الموريسكوس عين ضون خوان دي اوستريا قائدا لحربهم، فذهب اليهم من ناحية ألمرية وأخضع بعض القلاع، فكان ضون خوان هذا يخشى الحرب ويحسب لها حسابها، فعمد الى سياسة التهدئة والوعود، فبينما جيشه يحارب من جهة، اذا به يكاتب رؤساء جيش الموريسكوس من جهة أخرى يعدهم بان يعفي عنهم وتعطى لهم إعانات وضمانات يتركهم يعيشون هادئين مطمئنين مقابل أن يكفوا عن القتال ثم صار النصارى يكتبون رسائل بالعربية تحمل اسم رؤساء جيش الموريسكوس يحرضونهم فيها على مخالفة أوامر ابن عبو واتباعه، وفي هذه الاثناء كان بعض قواد النصارى يتقدمون منتصرين أمثال الدوكي دي سيسا، فاحتل بعض القلاع والحصون، وكذا القبطان انطونيو دي لونا يتابع تقدمه ويطارد الموريسكوس لداخل اسبانيا، ولاجل ان يجعلوا حدا لهذه الحرب لجأوا الى سياسة التفرقة والتشتيت فطردوا كل من هو منهم وصدر الأمر بالهجرة العامة لموريسكوس غرناطة، وتعويضهم عن أملاكهم وماشيتهم وإرسالهم الى وسط مقاطعة مانشا ومقاطعتي قشتالة فأغلبهم سكن فيها.

كانت وقعة هذه الكارثة على الثوار عظيمة، خاصة وأن علمهم الاحمر كان مازال يرفرف على جبال البوخارات (البوشارات)، ولقد دخل ضون خوان دي اوستريا الى هناك وصار يقلل من عددهم شيئا فشيئا، تارة بالقوة وتارة بالحيل والمكائد، غير ان الزعيم الموريسكي ابن عبو ابى ان يستسلم، فتحصن في مضيق هناك وأرسل من يقتبل الحباكي الذي كان الوسيط بين المسلمين والنصارى.

بعد هذا تغير الحال، فقد ذهب ضحية هذه الحرب كثير من البشر سواء من النصارى أو من المسلمين، غير ان الدائرة كانت على المسلمين،

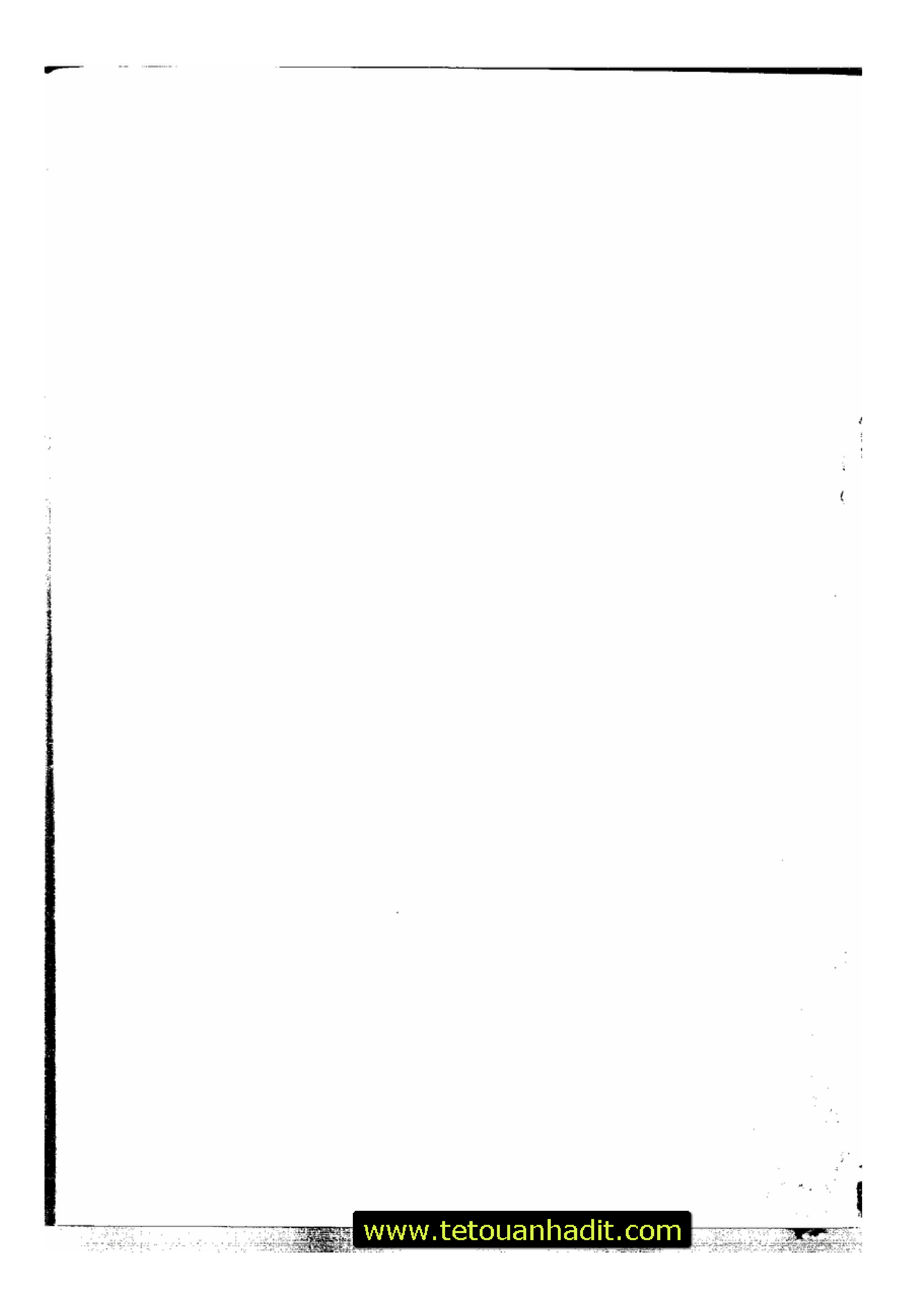
ولم يوف ضون خوان بوعوده فشرد الموريسكوس شر تشريد، وأكثرهم هاجر الى المغرب، ومن بقي منهم باسبانيا أقسم على نفسه بأن يدين بالولاء والطاعة لملك النصارى، اما ابن عبو فقد اقسم اقرباء ابن أمية بأن يقتلوه جزاء خيانته وغدره، فذهب اثنان منهما فنفذا فيه الثأر، وملئت جثته ملحا وحمل على فرس وأوتي به الى غرناطة ووضع رأسه في قفص من جديد ليراه الناس، وهكذا طأطأ الموريسكوس رؤوسهم يحيون المنتصرين النصارى في غرناطة ثالث مرة ابتداء من سنة 1492، وهكذا نرى من جديد سقوط المرابطين والموحدين كما يقول خافير.

وبهذا صارت جبال وأودية البوشارات وجبال روندة وسلسلة برميخا محتلة بجيش ضون خوان ينفذ فيها أوامر الملك فيليب الثاني يطارد الموريسكوس في كل بقعة ومكان، سواء من كان منهم محاربا أو مسالما، ولاجل اتقاء شر ثورة اخرى عملوا على تشتيت موريسكي غرناطة وتوزيعهم في نواحي اخرى من شبه الجزيرة فموريسكو غرناطة وسهولها الى ولكرين وجبال بنطوميز اخاركيا ونواحي مالقة وروندة سيقوا الى قرطبة، وبعد ذلك وزعوا على أسد ريخادورة وغاليسيا، وموريسكو باطا اويسكا، كواديكس ونهر المنصورة في مانشا وقشتالة نقية. اما موريسكو المرية وطابرة وغيرهم من قرى المقاطعة نقلوا الى جهات اخرى من الوادي الكبير في مملكة اشبيلية، وحملوا في بحرية شنصو دي ليفا الشهير، اما نواحي الشمال فحسب ما يقول بعض المؤرخين انه لا يوجد بها موريسكوس وخاصة في فيسكايا ونابارا، لان اهالي هذه المقاطعات لم يقبلوهم في التوزيع الذي وقع لأهالي البوشارات في عهد فيليب الثاني كما ذكرنا.

ويقول خافير: أيضا هكذا انتهت هذه الحرب وعلى هذا المنوال

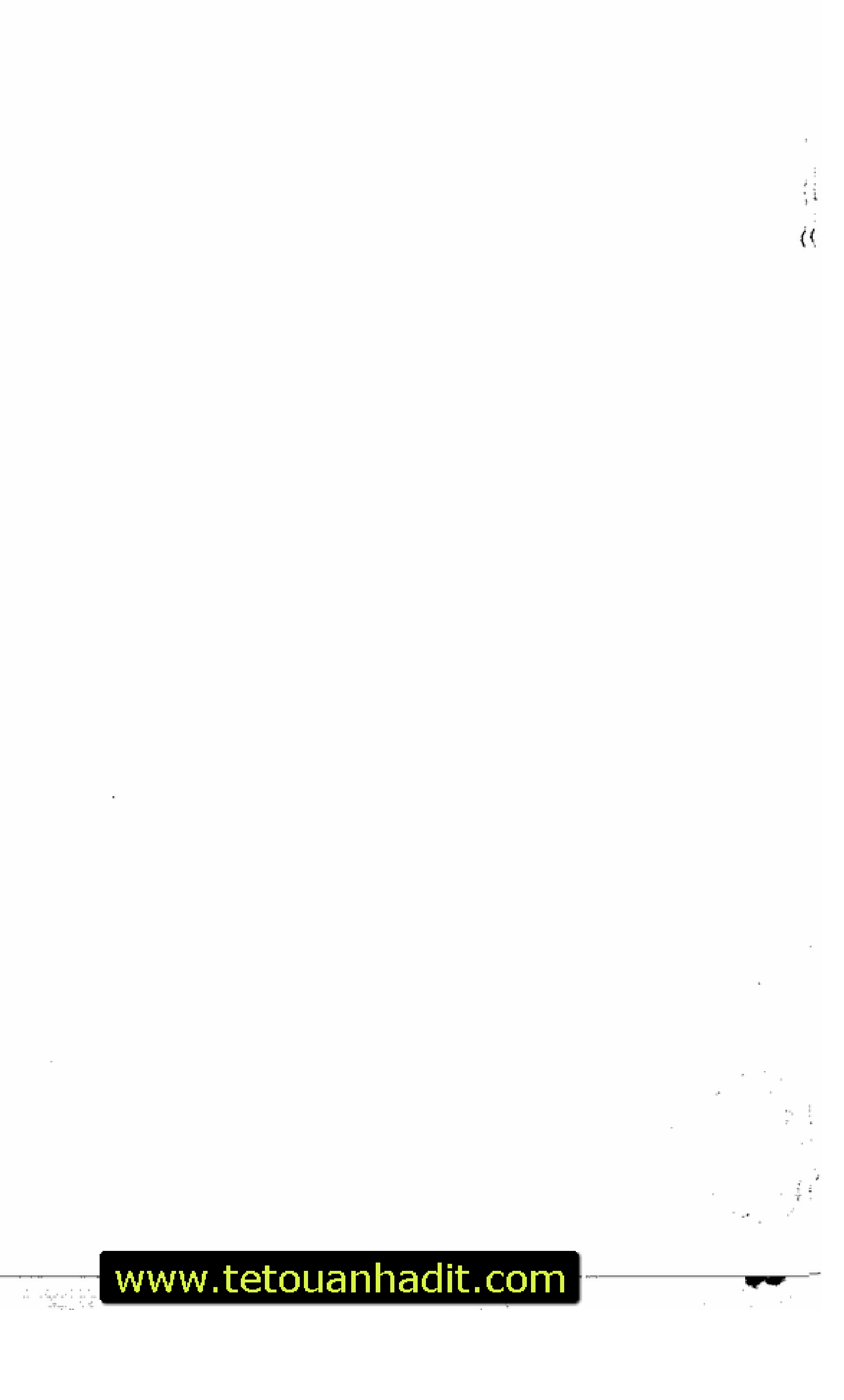


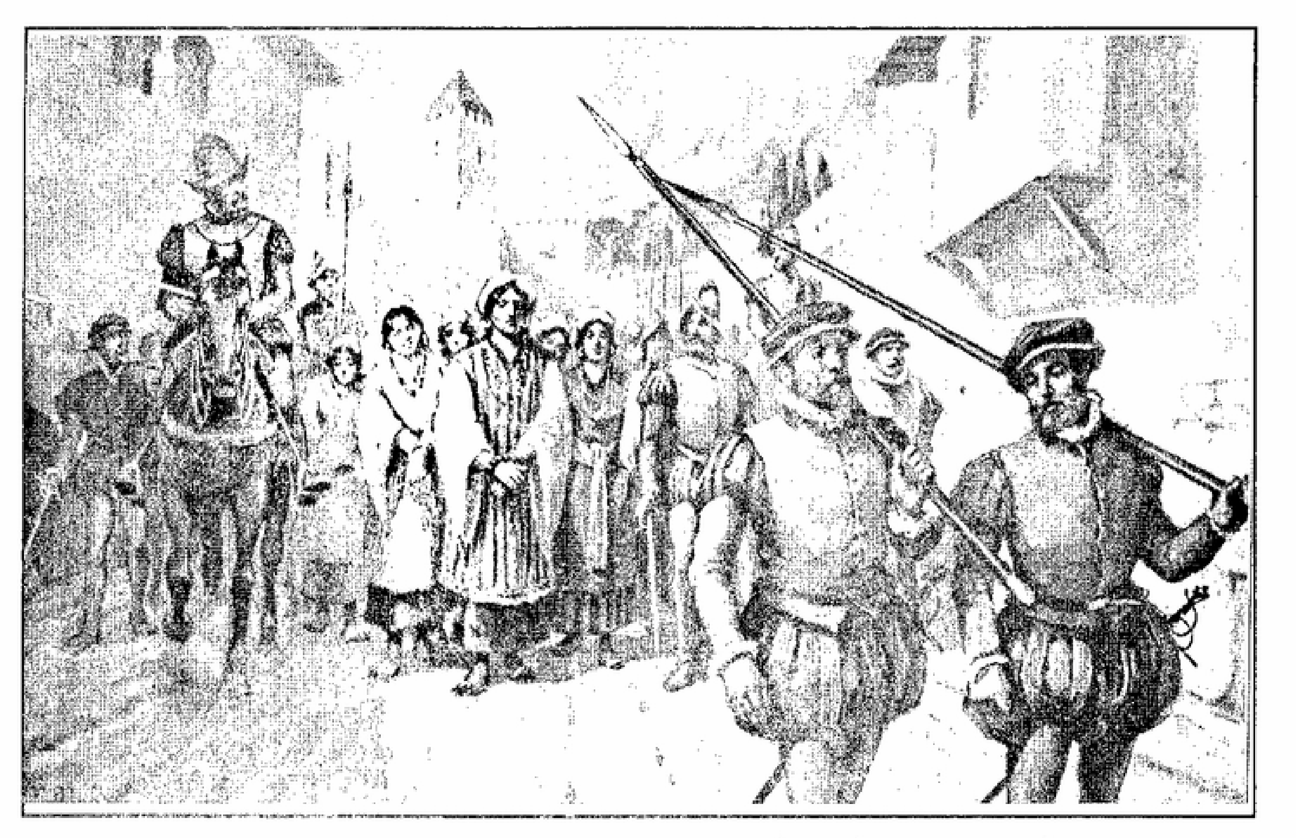
محاولة استيلاء أبو الفرج على غرناطة



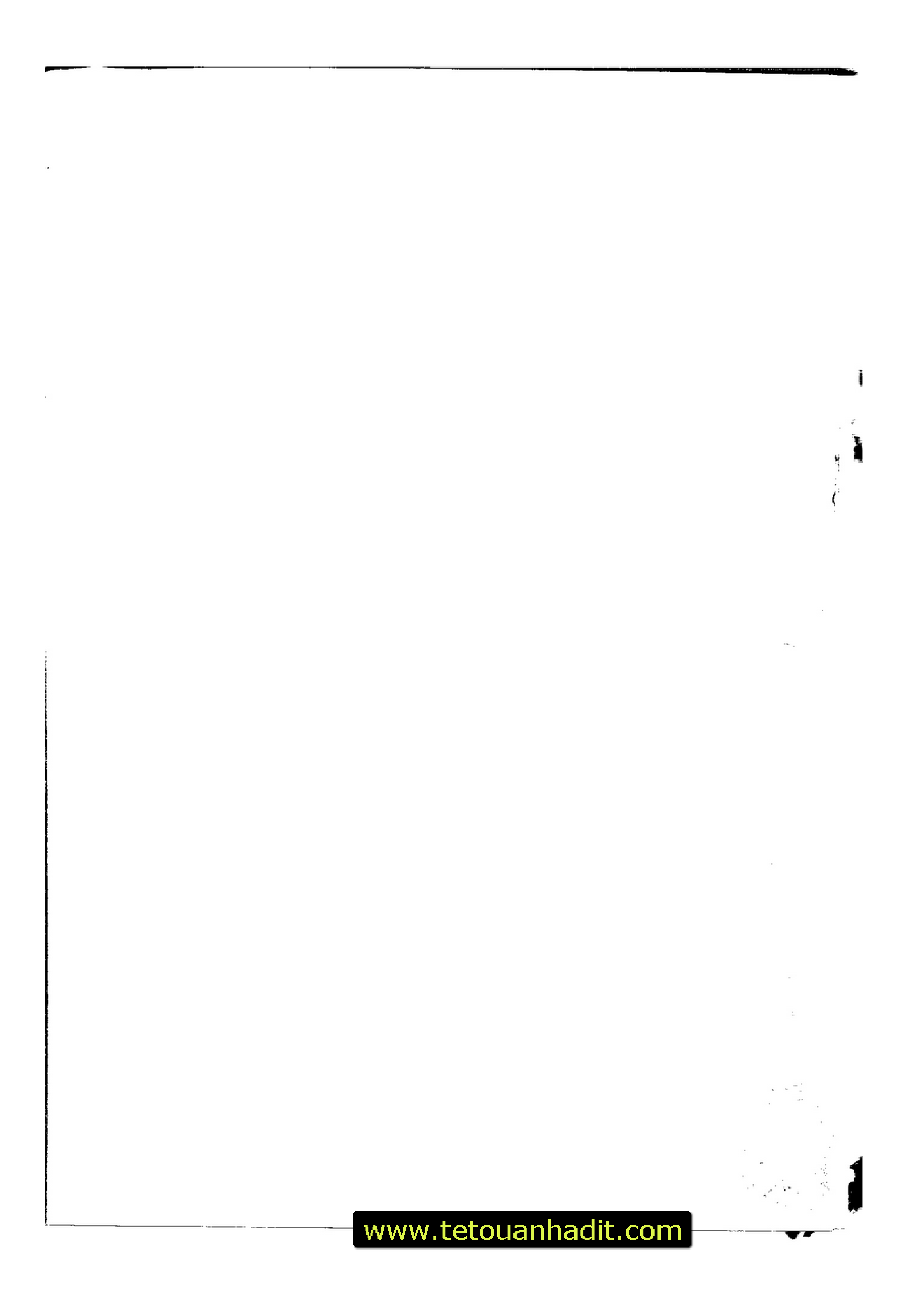


مقتل ابن أمية سنة 1526





أسر والدة ابن أمية وأخواته من طرف المسيحيين سنة 1569



وضعت أوزارها، ولم يبق خوف، وأصبح النصارى آمنين لا يخشون من قطع الطريق عليهم ولا من القتل، ولكن مما يؤسف له ان نجم الزراعة والصناعة قد أفل إذ كان الشعب المسلم شعبا شغالا وفنانا ونشيطا الشيء الذي أدى إلى النزول بالاقتصاد والصناعة في اسبانيا الى أسفل درك.

حالة الموريسكوس بعد التشريد الأخير

بعدما سقطت غرناطة ودخلها الملوك الكاثوليك (فرناندو وإزابيل) في 2 يناير 1492 أعطوا وعدا للمسلمين بأن يتركوهم أحرارا في عقيدتهم وعوائدهم، وأن لا يمنعوهم من شيء كانوا يفعلونه في عهد دولتهم وملوكهم، ومشاكلهم تحل ما بينهم على يد حكام منهم، ولم يكن هذا الوعد مقصورا عليهم، بل اعطوه باسمهم وينفذ ويعمل به في ايمهم وايام خلفهم من ابنائهم من الملوك، غير ان هذه العهود وهذه المواثيق لم يطل أمدها - للأسف - بل كان من النصارى من يرى ان لا بد من توحيد الدين في الدولة بعدما وحدت سياسيا، وكانت هذه هي فكرة رجال الدين على الخصوص، لذلك نرى الكاردينال ثيسنيروس وغيره يرتكب الجرائم وأنواعا شتى من الوسائل للقضاء على عقيدة الإسلام في اسبانيا، من قتل وحرق وتشتيت كما قدمنا، رغم هذا كله كان الموريسكوس أقوى الناس إيمانا، متشبثين بعقيدتهم الإسلامية، وعوائد أجدادهم القديمة سواء منها الدينية أو الاجتماعية، ويعتبرهم النصارى أعداء دينهم ولو تنصروا وأصبحوا يشاركونهم في عقيدتهم، فكان تنصرهم صوريا، ولم يتخلقوا قط بأخلاق النصارى، سواء تعلق الأمر بمن يعيشون بين النصارى القدماء، أومن يعيشون داخل أحياء خاصة بهم في مدن

النصارى (1)، فكنت تجد موقفهم من النصارى موقف تهكم واستهزاء بمعتقداتهم فما الكتب العربية والخميادية(2)، التي كانت ما زالت تتداول سرا بين ايديهم إلا دليلا قاطعا على تشبثهم بالإسلام وعوائده.

لما رأى المسلمون ما بهم ولم يبق لهم رجاء في اقامة دولة، عمدوا الى العمل المجدي بعيدين عن كل ما يتعلق بالسياسة والحرب، بل انعزلوا عن النصارى الأصليين وحرفوا همتهم للزراعة والتجارة، فصار لهم أكبر دور في التجارة في أعظم أحياء المدن. وبعضهم اشتغل بالصناعة المعدنية كصناعة أواني النار، والحدادة والخرازة والصابون والنقل، وبخصوص هذه المهنة الأخيرة: كانوا يقبلون عليها كثيرا ليسلموا من القيام بشعائر الدين المسيحي، حيث انها تتطلب التنقل من مكان الى آخر لحمل السلع بالبهائم بين المدن والقرى.

كان الموريسكوس يدفعون الضرائب وواجبات الحكومة بسخاء من تلقاء أنفسهم، اذ كان يسمح لهم -مقابل ذلك- بالبقاء على تنمية الثروة وكانوا لا يسمحون لاحد منهم بالتسول بل كلهم يشتغلون، ومن لا شغل

---

1. كانت الحكومة تخصص للموريسكوس احياء يسكنونها كما هو الحال لليهود بالمغرب، وكانوا يسمون [illegible] اسم MORERIA مشتقة من لفظ موريسكوس، وكان الإسبان يطلقونها على الأحياء القديمة [illegible] مغربية [illegible] الحماية.

2. [illegible] - الاسبانية مكتوبة بالحروف العربية، وهي كلمة محرفة على أخمي وهو الجامع اي [illegible]

له يشغلونه ويخلقون له عملا يعيش منه ولا يتركونه يعيش مهانا ذليلا عرضة للاحتقار والازدراء من جانب النصارى، واذا ارتكب أحد جريمة مهما كان نوعها سواء سرا أو جهرا يدافعون عنه ويفيدون بكل ما استطاعوا، واذا وقع بينهم خصام لا يلجئون الى حاكم، فكل مسائلهم تحل بينهم، ولم تجد احدا يتضجر من احد من بينهم، فكان التعاضد والتآزر والاتحاد يتجلى فيما بينهم بأسمى معانيه، فكان شعب الموريسكوس شعبا متألما ومتطلعا للثأر، وشعب كهذا قد عضه الدهر بنابه، وتوالت عليه النكبات بجميع أنواعها، لا يستبعد أن يصير شعبا متحدا متعاضدا الى أقصى ما يمكن أن يتصور. «هذه هي طبيعة شعب الموريسكوس الذي كاد أن يكون دولة داخل الدولة، وعمل جهده على ازدهار الأرض التي يسكنها من عرق جبينه».

ويقول مؤرخو العصر من الإسبان ان المغاربة (موروس) -أو المسلمون كما يقصدون- أتوا لاسبانيا بزراعة السكر، والقطن والحرير والأرز، وكان الموريسكوس يتقنون صناعة وزراعة هذه الاشياء ويحسنونها لدرجة ان صارت في اوج العظمة من الرقي والإتقان بفتح الترع للري وبناء السدود لخزن المياه (1) فكانت هندسة هذه الأشياء في الدرجة الاولى من الرقي والتقدم في ذلك العصر، فكان ميناء بلنسية يصدر منه الى الخارج الى أقطار أوربا وغيرها مما لم يوجد عندهم من منتوجات صناعية وزراعية وغير ذلك، وما زالت لحد الآن أراضي الأندلس وبلنسية تعيش على حساب فن الفلاحة والزراعة التي أدخلها

1) كما نراه بتطوان من عهد الأندلس الذي أدخلوه إليها وكذا توزيع الماء على الحقول كما في البادية المغربية والمنازعات في هذا تحل عند جمعية خاصة بذلك.

المسلمون، فتوزيع المياه وتقسيطها حسبما ينوب كل بيت أو حقل مما يدهش السواح الأجانب من الفن الهندسي الذي كان موجودا في تلك الأوقات عند المسلمين، وكانت لهم دراية ومعرفة وخبرة بالمواسم الفلاحية وأوقات الري، وكانت لهم قوانين خاصة بهذا، فإذا وقعت مشاكل فيما بينهم في هذا الشأن تحل حسب هذه القوانين، مما نجده لحد الآن جاريا به العمل بين فلاحي الأندلس وبلنسية، فكل الأشياء الحيوية ضوعفت بمجهود الموريسكوس من زراعة السكر ومعاصر(1) الزيت ومستودعات للعنب، فكانت الزيت والنبيذ يصدران للأقطار البعيدة عن اسبانيا فضلا عن القريبة منه.

ومن الفواكه والأشجار التي ادخلها المسلمون الى اسبانيا التين الشوكي (الهندي) يعرف بمقاطعة كاطالونيا بتين المغاربة، وبعض المغاربة يطلقون عليه كارموس النصارى، كل واحد ينسبه الى الآخر، والرمان وهذه الاخيرة تذكرهم باسم آخر عاصمة ملكهم الضائع (غرناطة) لأنهم يقولون للرمان، گراناضا، والمزاح، والقطن وشجر البرتقال وشاذرونيو (شجر بدون طعم وعليه سميت مدريد) والسفرجل والنخيل، وكثير من النباتات ذات الرائحة الطيبة والمنظر الجميل والزبيب والشفح والبلوط والجوز واللوز وأنواع من الحبوب الأخرى، كانت تمتلئ بهم أسواق اسبانيا وتصدر في بعض الأحيان للخارج، حيث يصرح لها بذلك.

---

(1) [illegible] فإن الكلمات الفنية مازالت مستعملة في اللغة الاسبانية وهي كثيرة، فمعصرة الزيتون يقال لها معصرة ALMASARA وناعورة سانية الماء يقال لها SANIA وقد كتب المستشرق الاسباني [illegible] عن كلمات الاسبانية الدخيلة من العربية كتيبا في الموضوع، وكذا يوجد كتاب ضخم في نفس الموضوع كتبه مستشرق برتغالي يدعى ماشاضو محفوظ بمكتبة القصر الجمهوري بلشبونة. وملخص من مطبوع يوجد [illegible] مكتبات لشبونة.

وبنى الموريسكوس الطرقات وفتحوا الأنهر للسقي وحجز مياهها، ونظموا الاتصال بين المراسي لتسهيل التجارة كبرشلونة، طرگونة، بلنسية، مالقة، قادس، ومراسي أخرى.

هكذا نرى التجارة والصناعة قد ازدهرت ونمت في أيام الموريسكوس بعدما افل نجم دولتهم، ويقول بعض المؤرخين الإسبان: «يرجع هذا الازدهار وهذا التقدم في الصناعة والتجارة والزراعة وغيرها الى الدين الإسلامي، لأن الإسلام يحض على العمل ويجعله ركنا من أركان الدين، وكذلك لأنهم كانوا يريدون ان ينافسوا الشرق في حضارته ورفاهيته.

كانت كل مدينة من مدن اسبانيا متخصصة في نوع من أنواع الصناعات وتمتاز بها عن غيرها، ومنها تصدر للداخل والخارج، فقرطبة بالسجاد و"الحيطي"(1) أما الورق "الكاغيط" المصنوع من الحرير كان يصدر من معامل متعددة، وهذه الاشياء احتكرت في أسواق وجهات عدة، فلم تجد مزاحمة من غيرها، وزيادة على صناعة حرير غرناطة كما قدمنا، كان يوجد بالمدينة المذكورة خمسة آلاف معمل للحرير حتى بعد السقوط، واما صناعة الملف الرقيق، وثياب الصوف وصناعة الجلد، وصناعة المجادل والحياك، ونسيج القطن والنسيجّ النباتي، فإنها كانت تحتل مكانا حيويا في حياة الشعب، ويعيش من ورائها أسر متعددة رجالا ونساء قشتالة وبيسا وفلورنسا. ان صناعة الموريسكووس لم تكن تضاهيها صناعة الانكليز، ولا البلجيك، ولا أية دولة أوربية في إتقانها والروح الفنية

---

1) الحايطي : وهي ستائر تزين بها الجدران.

التي تتجلى فيها، سواء في لمعان الألوان ومتانة النسج ونوع الطرز وصناعة الازهار المقلدة على الصياب، اما الحلي فهي مازالت محفوظة لم يتلف من بهائها ورونقها الزمن شيئا، فالنقوش اللامعة وغيرها مما نشاهده بقصر الحمراء الآن، وأواني الخزف والحفر على الخشب والنقش على الاحجار والجبص، وما الى ذلك مما لا يحصى يدل على تقدم الشعب الموريسكي وبلوغه الى ذروة ارقى الحضارات في ذلك العصر ».

فكما نجد غرناطة قد تقدمت فيما ذكرنا آنفا من النقش وغيره، نجد مالقة لا تقل عنها في شيء آخر من صناعة الخزف حتى وصلوا به الى درجة من الاتقان مما يدهش العقول، ويحير الالباب، فبلغت شهرته الى الأقطار النائية عن اسبانيا، اما شهرة مالقة في بناء السفن فحدث عنها ولا حرج، فكان بناء سفن مالقة ومن يسكنون ببعض شواطئ كاطالونيا لهم شهرة كبيرة في هذا الباب لاتقانهم هذه الصناعة وتفننهم فيها، ويقول خانير:« كانت مدينة ألمرية في عصر المغربي رايسيس(!) مسكونة بصانعي السفن وبنائيها، فالموريسكوس تابعوا هذه الصناعة على تلك الطريقة محتفظين بالزخاريف الرئيسية من هندسة العرب تحت حكومة النصارى بل وحتى في بناء النصارى يمكن للرائي ملاحظة الذوق الشرقي في أبواب ونوافذ دور السكنى بل وحتى في الأسوار والأبراج النصرانية القديمة ».

ويقول كاڤيدا CAVIDA:« لقد اكتشف في السنين الاخيرة أشياء مطبوعة بالطابع العربي في قصور متعددة، ومعابد وحصون بناها عظماؤنا من رجال الدين وغيرهم يرجع تاريخ عصرها الى القرن الخامس عشر المسيحي وخاصة بعد سقوط غرناطة ».

(!) لم نعثر على عصر هذا [illegible] ريسيس ومن هو ولم يعط خانير تفاصيل عنه.

والإنسان يشاهد الزخرفة العربية تتخللها شعارات مسيحية كصور للعذراء، وشارات الصليب مما يدل على بنائها وانشائها على يد المدجنين أو الموريسكوس، وكذا نلاحظ الآن كتابات عربية وجملا عربية بخط جميل مصنوعة في الفسيفساء الاشبيلي لحد الآن، والإسبان لا يعلمون انها كتابات عربية بل زخرفة فقط ورثوها أبا عن جد كجملة «ولاغالب إلا الله» فمازالت معامل الفسيفساء الاشبيلي تضعها عليه.

وعلى كل حال فالشعب الموريسكي رغم كونه لم يكن له يد في الشؤون السياسية، كانت بيده الصناعة والفلاحة والتجارة، وكان مستوليا على مرافق الاقتصاد في الدولة بدون معارض ولا مزاحم لدرايته بها، وبوجوده كانت مزدهرة ثروة اسبانيا، وإذا كان أجداده قد اخترعوا في مجال العلوم والفنون التي كانت اسبانيا زاهرة بهما في ذلك العهد، فإنه لم يبق من هذا إلا ما احتفظ به بعض شيوخ الموريسكوس الذين لم يريدوا أن يضيعوا ما بأيديهم من آثار تدل على عظمة أجدادهم، يتلقونها ويرثونها خلفا عن سلف بالتوارث بواسطة مخطوطات الخميادو ALJAMIADO التي ما تزال محفوظة لحد الآن بالمكاتب الاسبانية بمدريد والاسكوريال، فالذكاء الشرقي - كما يقول خانير - لم يلمع من جديد على شبه الجزيرة بتلك العلوم التي عرفوا كيف يبعثونها ويتعهدونها بتشجيعهم لها أمثال أسرة زيري بغرناطة، والحمدونيين بمالقة، ومعز الدولة بألمرية، لم تبق لهؤلاء قدرة على الابتكار كما كان أجدادهم من قبل، لأن أفكارهم مقيدة وحريتهم مضغوط عليها، ولأنهم مراقبون في أعمالهم ومتألمون من ضياع دولتهم، فلم يبق لهم أمل في رجوع عزهم، والإنسان يعيش بالأمل ويحيا بالرجاء، لذا فانهم قد اكتفوا بما ورثوه عن أجدادهم، يعيشون من ورائه عيشة البؤس والشقاء،

مستسلمين الى الخرافات والخزعبلات من كتابة الطلاسم وغيرها، فتجد في عنق أطفالهم كتابات وتعاويذ وطلاسيم لتقيهم الشر، واستولى على أفكارهم وعقولهم التشاؤم، والأمة إذا ابتليت بمثل هذه السفاسف والأباطيل، فبشرها بالويل وخاصة بين أهالي غرناطة، حتى انه كان يعاقب من يستعمل هذه الاشياء عقابا صارما ايام كارلوس الخامس.

رغم هذا كله كان الشعب المريسكي تتجلى فيه روح المرح والنشاط في حفلاته الشعبية، فكان يقيم مباراة للمصارعة والسباق، ولعب الخواتم "السحار" والرقص والغناء، وبعضهم ينشد الاشعار ويحكون الاقاصيص والاخبار متنقلين "الحلاقي"(1) فكانت البنات الموريسكيات يتباهين بلباسهن من الملف ذي الألوان المتعددة مطرزة بالذهب ومرصعة بالاحجار الكريمة، وعلى رأسهن عصابة منبتة بالأحجار أو الازهار، وهي مستعملة بالمغرب لحد الآن، وبخواتم في أصابعهن وأسورة على ذراعهن ويضعن على وجههن خالا اسود ويدهن جفونهن ما بين البياض والزرق (كبياض الفضة تقريبا) وهذا الدهن مازال مستعملا الآن باسبانيا.

أما الرجال فكانوا متحدين يسودهم الوئام فيما بينهم وان كانوا مع غيرهم على خلاف ذلك، فقد كانوا يتعاونون فيما بينهم، وكانوا شرفاء النفس وأصحاب كلمة واحدة، حتى انهم اشتهروا في الاسواق بالصدق والأمانة، وخاصة بين أهالي غرناطة، حتى غدوا مضرب الأمثال بين النصارى، فيقولون :«كلمة الغرناطي وإيمان القشتالي يؤلفون كاثوليكي قديما»، هذه الظاهرة نجدها في أهالي تطوان، فلا غرابة فإنهم من أصل غرناطي.

---

(1) جمع حلقة في مدينة مغربية.

اما لباس الموريسكوس في هذا العصر فكان قد ابتدأ يضمحل في بعض النواحي، فناحية قشتالة أصبح أهلها يتزينون بالزي النصراني كله تقريبا، اما في بعض المقاطعات فقد حافظوا على بعض الأشياء الإسلامية الرئيسية كالسراويل والسلاهيم والشاشية والعمامة، كان الملاحون يستعملون لباسا مزخرفا ويتحزمون بحزام عريض "الكرزية" التي مازالت مستعملة عند قدماء التطوانيين. وفي الرباط وسلا كذلك حتى عهد قريب، ومازالت الآن تستعمل كشيء رئيسي عند فلاحي وحدادي اراغون وكاطالونيا والأندلس وبلنسية، أما لباس الفرس من سرج وغيره فانه مازال على الطريقة الاسلامية، هكذا كان الموريسكوس متشبثين بعوائدهم الإسلامية.

نرجع الآن لنرى معاملة القانون النصراني لهم في كل هذه المدة التي مرت، نرى ان معاملته للمدجنين والمتعاهدين كانت غير معاملتهم للموريسكوس(1) فالأولون كانوا يتمتعون بحريتهم بجميع أنواعها كما قدمنا، اما الموريسكوس فكانوا بعكس ذلك، ان القانون الذي اصدره الملوك الكاثوليك بشأن الموريسكوس في عام 1502 بطليطلة كان ينص على ان المتنصرين لا يمكنهم بيع أملاكهم، ويمنع لهم ان يغادروا قشتالة وليون هم وأبناؤهم أينما كانوا يسكنون من قبل، ولا يسمح لهم بالذهاب الى غرناطة في بحر سنتين ولا لمدن أخرى أو قرى نفس المملكة، ومن خالف ذلك فعقوبته مصادرة أملاكه ومتاعه من ضياع وعقار وأثاث وغيرها، ولكن يسمح لهم بالذهاب الى ممالك أراغون وبلنسية والبرتغال بعد ان يعلموا المجلس بذلك مسبقا، ويضعوا ضمانة تضمن رجوعهم

---

1) ترجع معاملتهم الحسنة للمدجنين والمتعاهدين - حسبما يظهر - بسبب الدولة الإسلامية التي كانت ما تزال قائمة في بعض الممالك بإسبانيا، اما مراعاة لتلك الدولة أو من أجل الدعاية الحسنة للنصرانية لجلب أهالي تلك الممالك الإسلامية الى جانبهم، اما الموريسكوس فلم تكن لهم دولة ولا شيء للمراعاة.

لديارهم، وفي عام 1511 كان يعاقب بشهرين في السجن كل موريسكي غرناطي يخالف قانون حمل السلاح، وفي عام 1515 كان يمنع كل نصراني جديد من قشتالة وأراغون ان يتجر في مملكة غرناطة، فعقوبته الموت ومصادرة أملاكه، وتقسم على ثلاثة :قسم لمن أبلغ عنه الى الحكومة (تجسس عليه)، وقسم للقاضي، وقسم للدولة، وفي تلك الفترة أصدرت الملكة ضونيا خوانا أمرا بتغيير الموريسكوس لباسهم من رجال ونساء وصبيان وابداله بلباس نصارى قشتالة، غير ان هذا الأمر لم ينفذ في تلك الفترة. وقد كان بعض رجال الدين يلحون على كارلوس الخامس بتنصير موريسكو مملكته أو طردهم، فنفذ هذا الطلب في 12 مارس 1524، فقد عهد للمفتشين بتنصيرهم، وان لم يقبلوا فعقوبتهم بقاؤهم رقيق على الدوام، وتحويل كل المساجد الى معابد نصرانية، ويقال ان ما كان يدفعه هؤلاء وهو العشر من محصولات أراضيهم للمساجد قبل التنصر أصبح يدفع للكنيسة، ورغم عدم رضى رجال الدين النصراني، فالمفتشون صاروا يزعجون الموريسكوس ويضايقونهم بكثرة الرقابة وسوء المعاملة، حتى أدى هذا الأمر إلى تضايق وتضجر ممثل مقاطعات اراغون وكاطالونيا وبلنسية في المجلس وشكوا للملك سوء معاملة رجال المجلس الشرعي للنصارى الجدد في المجلس، المنعقد بمانثون عام 1528 بأنه لا يلزم ان يعاملوا بهذه المعاملة ولو تظاهروا في معاملتهم كمسلمين، ولكن لم تمر مدة قليلة حتى أجبروا على مغادرة أحيائهم الخاصة بهم، والسكنى في المدن الكبرى مختلطين بالنصارى، ونجد أيضا القانون الاسباني في عام1526 وكذلك في عام 1549 ينص على أن يدخل في زمرة النصارى القدماء من النصارى الجدد إلا من كان قد تنصر.جده قبل سقوط غرناطة، وفي عام1552 أصدر أمر بمملكة غرناطة بأن على كل

موريسكي أن يحضر سلاحه ليطبع، ويعاقب بست سنوات بالعمل في المراكب البحرية إن لم توجد عنده رخصة أو إذن باستعماله، وقد أحدث هذا الأمر اضطرابا بين الموريسكوس، وفي عام 1566 منعوا من ارتداء اللباس الموريسكي واستعمال اللغة العربية، وكان هذا هو السبب الرئيسي للقيام بحركة الثورة وحرب البوشارات في عام 1568، ومن هذه الحركة أصبحت الأشياء تصدر بسرعة عليهم ويكثرون الدخول في التنصر لأنهم -حسبما يظهر - أصبحوا يعاملون بقساوة وبلا هوادة، وفي عام1582 منع مويسكو بلنسية من أن يقتربوا من شواطئ البحر أو مدن الشاطئ، ،في عام1586 التمس برلمان مدريد من الملك بأن يوزع كل الموريسكوس على المقاطعات وينزع منهم كل ما يكون سببا في رفاهيتهم وجعلهم أصحاب ثروة، ولا يسمح لهم بمغادرة البلد الذي يسكنونه، ومن خالف ذلك فعقوبته الموت، ولا يشغلون وظيفا حكوميا، ولا يشغلوهم إلا في الأشياء الصعبة كالحربية مثلا، وأخيرا في عام1593 نزعوا السلاح من موريسكو أراغون وابتدأوا يطبقون عليهم القوانين الصارمة ليجبروهم على التنصر، وإلا فعقوبتهم الشغل بالمجاذيف في السفن أو الموت.

يقول خانير أيضا « لقد رأينا في بعض الأوقات أن تسامح النصارى مع الموريسكوس كان عظيما غير أنه - للأسف - لم يجد نفعا لسوء سيرة الحكام، ففي عام1545 أصدر مرسوما بالعفو عن الموريسكوس الذين هاجروا للمغرب بالعودة الى اسبانيا، كما أصدر كارلوس الخامس أمرا يترك بموجبه موريسكي بلنسية أملاكهم ليتمتع بها أبناؤهم، وكذلك في عام1548 شرع المفتش الديني فرناندو بالدث بأن لا يشاركوا في الاحتفالات العامة، وان يسكنوا بين دارين للنصارى القدماء، ويتزوج

أبناء الموريسكوس بنساء من النصارى القدماء أيضا والعكس، ويدفنون في مقبرة واحدة، ثم يستطرد خانير في الكلام فيقول :« كل هذه الأشياء لم تجد نفعا ولم يزرع في قلوب الموريسكوس من حب الدين المسيحي شيئا، ثم نجد في عصر فيليب الثاني عصر الاضطهاد الحقيقي والعذاب الأليم، فالجاسوسية تعمل عملها، والسجون مكتظة والحرق بالنار وكل أنواع العذاب، كل هذا نتيجة حكام أنذال متعصبين يريدون الانتقام والاستيلاء على الأملاك والثروة التي بيد النصارى الجدد، فيرغمونهم على الهجرة » ثم يقول أيضا « لم يكن في أيام أجداد الأجداد قانون سياسي محدود يمكن له أن يقضي على الشعب الموريسكي بطرق حكيمة، ثم يتأسف خانير على أولئك الذين كانوا يرتكبون تلك الفظائع باسم الدين مع النصارى الجدد، فبدلا من ان يحسنوا إليهم باسم الدين ليقبلوا عليه وهم حديثوا عهدهم بالدخول فيه، يعذبونهم لينفروا منه، هكذا كانت حالة الموريسكوس مع النصارى، لم يتمتعوا معهم بالتسامح طويلا، وخاصة في عصر فيليب الثاني فهو من أظلم العصور التي مرت عليهم، إذ لم يكونوا يفكرون إلا في الاتحاد السياسي لا الديني، أي في تحاد تسوده روح القوة والسيطرة والامتلاك.

أسباب طرد الموريسكوس

في أواسط القرن السادس عشر كان ملوك أوربا لا يهتمون بشيء يعود بالنفع على الشعب إلا فيما يتعلق بمسائلهم الخاصة من عظمة وتمتع بالملذات والاستيلاء على أحسن الأراضي الزراعية وترك الشعب يموت جوعا تحت نير استعبادهم، وكان الأوربيون إذ ذاك في حروب متتابعة مع الأتراك الذين كانوا في أوج عظمتهم.

ومن بين الأشـيـاء التي كـانت تضـر بالدولة في الداخل حـرب موريسكو غرناطة التي كانت عاقبتها وخيمة على الدولة، ثم ذهاب أموال وشباب وسلاح الدولة للخارج، بينما نجد الداخل يسود فيه الشقاء وتقييد حرية الفكر وتحطيم الطريق الذي يؤدي الى اتحاد الشعبين (النصراني والموريسكي) المتساكنين بايبيريا القديمة من انه بعد الحرب التي قام بها موريسكو غرناطة والبوخارا (البوشارات) أصبح من الممكن -أكثر من كل وقت إقامة اتحاد بين الشعبين».

إن المسلمين الذين هاجروا من غرناطة أثناء حرب الثلاث سنوات (1569-1571) والذين أخرجوا من قرى متعددة حين دخلها ضون خوان دي أوستريا اختبأوا في ممالك أراغون وبلنسية وكاطالونيا يقطعون السبل ويقتلون وينهبون ويحطمون الأديرة والصلبان ويعذبون الرهبان، وقد اجتمعت لجنة لبحث مسألتهم في نفس السنة التي ثاروا فيها، ولكن كان كل شيء عبثا، وبقي النصارى ينظرون إليهم نظرة أعداء يعايشونهم، ففي عام 1569 أصدر أمرا بتجديد طرق التبشير باللين والرفق بدون أن يجرحوا عواطفهم، وكان ضون خوان دي ريبرا هو الداعي لهذه الفكرة لأنه كان يعرف الخطر الذي يأتي من جانب الموريسكوس، وقد شاهدوه في حرب البوخارا. وكان أسقف بلنسية هو الواضع للبرنامج الجديد في عام1569 المذكور آنفا، وأعطى لكل قسيس قرى الموريسكوس هذا القانون ليطبقوه، وأعطيت التعليمات به أيضا للمبشرين الواردين على القرى للزيارة، وأمر بأن تعطى دروسا في تعليم مبادئ الدين النصراني كل يوم أحد من طرف كل قسيس لجماعته من النصارى الجدد، ثم يمنح فيما بعد مكافأة مالية سنوية ومأوى دائم، وكذلك كان العمل جاريا بالتبشير على هذا المنهج في مملكتي كاطالونيا وأراغون نحو موريسكيها، ونجد

أيضا حكومة فيليب الثاني جد ساهرة في قضية الموريسكوس، وتعمل جهدها لجلبهم بأن يتحدوا مع النصارى متعظة بحرب البوشارات خشية من أن تقع فيما وقع فيه غيرها في الماضي من أغلاط، غير انهم لم يحصلوا على طائل من وراء هذه السياسة، حيث أن الموريسكوس كانوا يعملون يدا واحدة مع القراصنة الأتراك والمغاربة الذين كانت مراكبهم تجول في مياه بلنسية، فكانوا يعطونهم الاشارات ويطلعونهم على عورات البلاد وأمكنة الحراسة والجيش، حتى إذا جن الليل نزلوا إلى البر وفعلوا فيه ما أرادوا حتى أدى الأمر إلى اصدار مرسوم يمنع الموريسكوس من ان يقتربوا من شاطئ البحر أو يقوموا بالزراعة قرب الشاطئ إلا بإذن خاص، فأصبحت مناطق الشاطئ مناطق محرمة، وجعلت لمن يخالف ذلك "الموت" إذا كان المخالف عمره 18 سنة، ثم أعطيت أوامر للأشراف بأن يأمروا خدامهم من الموريسكوس بالهجرة من المناطق المعروفة ،المحظور الوصول إليها، وإذا خالف فعقوبته تأدية غرامة قدرها ثلاثة آلاف فلورينس ذهب.

لم يصلوا إلى النتيجة المرجوة بهذا كله، ولم يتخلوا عن علاقتهم بأسطول المغاربة والأتراك، ولم يرضخوا لأوامر ملوك الاسبان بما فهم موريسكو بلنسية وكاطالونيا واراغون، وحاولوا ثاني مرة في عدة أمكنة من اسبانيا إقامة دولة وتتويج ملك، وعينوا اليوم للقيام بمبايعة ملك عليهم. غير ان محاولتهم اكتشفت في سرقسطة في عام 1581 وكان زعيمهم هو خيمي إيثكيردو الذي كانوا يريدون أن ينصبوه ملكا عليهم، فألقي عليه القبض وحوكم هو ومعاونيه من الموريسكوس، وكان المدبر لهذه الحركة شخص قدم من افريقيا يدعى فاراوط (اسم مجهول)، فهو الذي كان يترأس المؤامرة ويسيرها ويعدهم بالمساعدة من تونس وافريقيا. فكانت هذه الحركة هي الباعث على طرد الموريسكوس بأجمعهم

الذي طالما نصح كثير من الإسبان بهذا الاجراء حكامهم، لأن بقاءهم لا يؤدي إلا إلى تنمية العداء بين الشعبين، لأن الموريكوس كانوا دائما متطلعين الى تأسيس ملكهم الضائع من جديد، والنصارى لا يروقهم ذلك، فكان رجال الحكم يتتبعون من خرج عن الدين ويعاقبونه(1) حتى يعترف بخطئه، وكان إذا عذب النصارى موريسكيا يعلمون به الموريسكوس المغاربة ليفعلوا مثله بالنصارى عندهم بالمغرب.

سلم مريسكو بلنسية سلاحهم في سنة 1568، أما موريسكو أراغون فلم ينزع منهم سلاحهم إلا في سنة 1593 وكانوا قد أرادوا نزعه منهم في سنة 1559، غير أن الاشراف خالفوا الأمر وتركوا الموريسكوس الذين يخدمونهم بسلاحهم الى السنة المذكورة، ويقول بعض المؤرخين «كانت عاقبة ترك السلاح لهم ويلا على نصارى أراغون، فكان القتل وقطع الطريق لا ينقطعان، حتى أنهم كانوا في بعض الأوقات يهددون ضياع المملكة بأجمعها كما رأينا، وكان الجدال لا يفتر والطعن في الأديان والقتل والسرقة وغير ذلك مما يطول شرحه، فكانت تقوم معارك حامية الوطيس فيقع الغالب على المغلوب بالسلب والنهب والقتل، وكانت تقوم بهذه الاشياء فئات وجماعات مؤلفة تحت رئاسة واحد.

لم تكن هناك حياة مضمونة ولا طريق آمن، يقول خانير :«كانت حالة الشعب الاراغوني مؤلمة وكان فيليپ الثاني لا يعير اذنه للمشتكين، وكان يتساهل مع الموريسكوس رغم النصائح التي كانت تسدى له بطردهم نهائيا اتقاء لهذا كله». (2)

رغم ان فيليپ الثاني بلغه خبر هجرة موريسكو مقاطعة غرناطة، كون جمعية للعمل على اتحاد الشعبين وتعليم النصارى الجدد، فتألفت

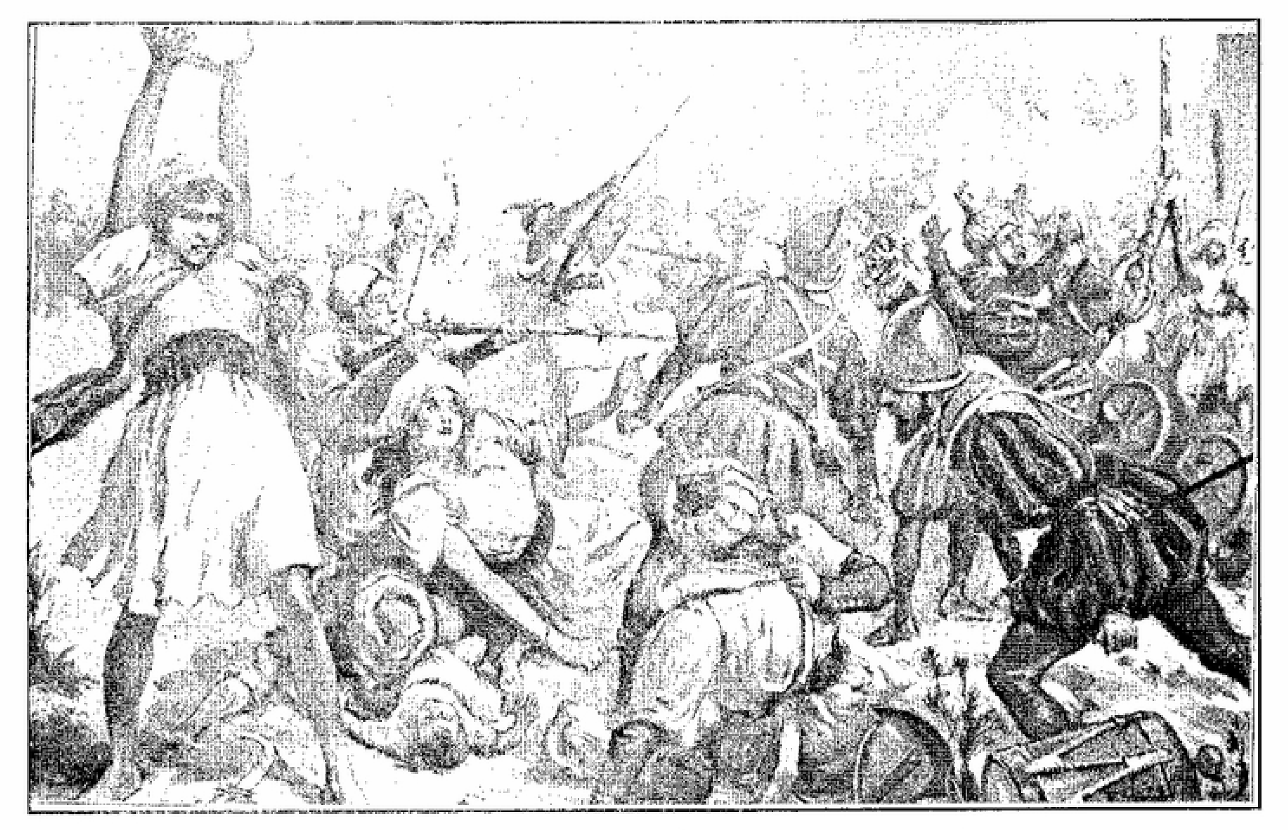
---

1) المجموعة الدبلوماسية.

2) المجموعة الدبلوماسية.

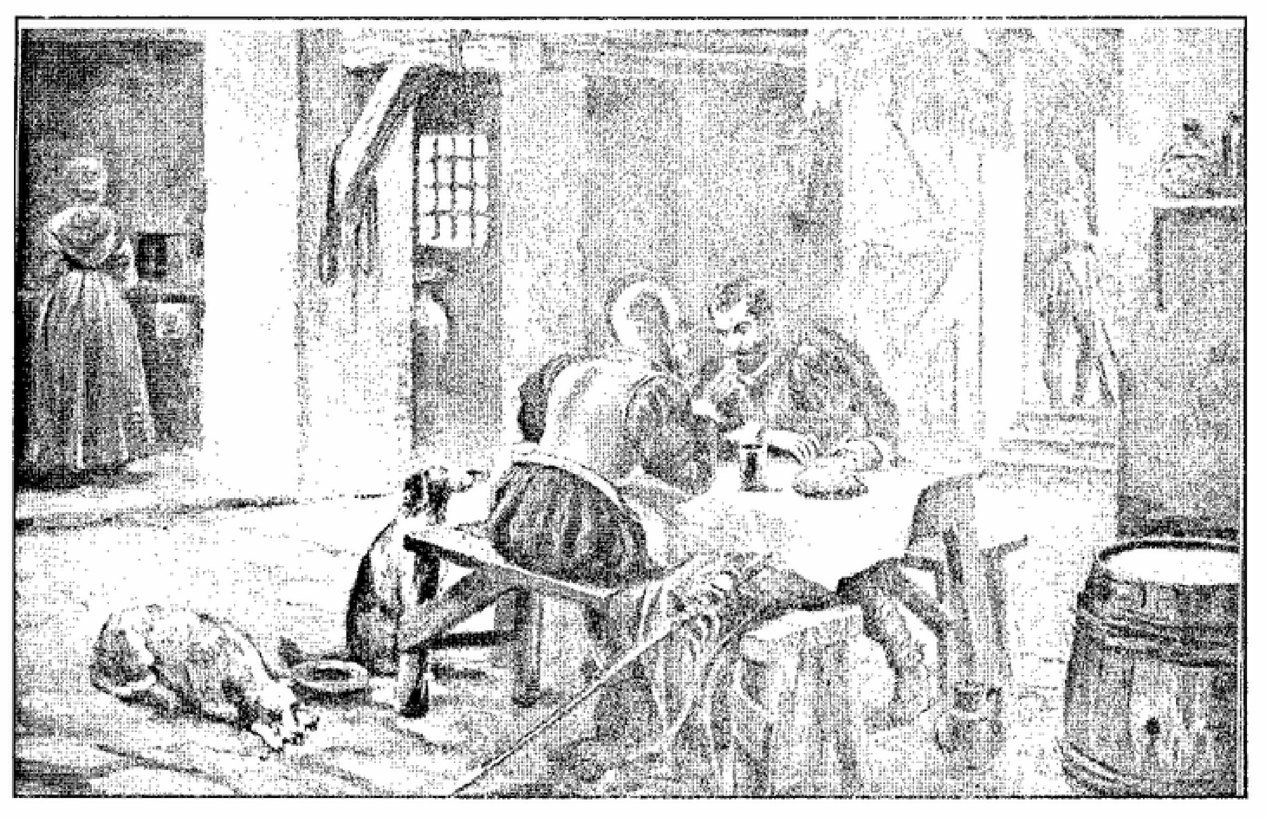
جمعيات إحداها بمدريد وأخرى ببلنسية، فجمعية مدريد افتتحت جلساتها يوم 17 يونيو 1587، أما جمعية بلنسية فافتتحت جلساتها يوم 13أكتوبر من نفس السنة، وكانت مهمة الجمعيات هو العمل على اتحاد الشعبين والتبشير والتعليم للنصارى الجدد والموريسكوس بطرق سلمية، أما النصارى القدماء فقد أحزنهم هذا، وأما الجدد والموريسكوس فقد دفعهم هذا الى التهريج والفضيحة فاضطروا لتوقيف ما قرر، وقد وقعوا في هذا غير ما مرة في القرن السادس عشر على يد اسقف كالاأورا CALAHORRA واسقف بلنسية، وبطريق انطوكيا خوان ريبرا الذي كان يقول « لا تزوروا النساء الموريسكيات، لأن أزواجهن غيورون، ولا تكلموهن ضد محمد لأنكم تجرحوا عواطفهن وتبعدوهن عنكم ولا تشرحوا لهن عقائد ديننا ولا أسراره لأنهن جاهلات لا يفهمن ولا يلزم أن تدخلوا معهن في جدال » بهذا كان يوصي هذا البطريق رجال الدين ويقول خانير «إذا ماذا كان سلاح الانجيل؟ أين العطف؟ أين الحنان؟ أين التسامح؟ لم يشع نور الحب والعطف اللذين كنا نراهما قبل، يشعان على يد القسيس طلابرا وسياسة الكندي ذي طنديا، ان هذا النوع من المعاملة لم يعد صالحا عند الحكام ولا رجال الدين، ولم يعمل أحد منهم على احيائه من جديد ثم يقول أيضا « لقد أتى كثير من المجددين ولم يفلحوا، ومنهم الأب بركاش المجدد الذي صرح على رؤوس الملأ يوم 14 أبريل سنة 1578 عندما ولد فيليب الثالث في قصر مدريد، صاح من فوق المنبر هذا القسيس « لا ترضون ان تأتوا عند المسيح، فتعلموا انه قد ولد في اسبانيا من سيطردكم من المملكة.

ومن جملة وسائل التبشير كان خوان ذي ربيرا يضع غرامة لمن لا يعرف، بينما كان فليثيانوا ذي فيگروا يوزع الجوائز على المتفوقين في التعليم، ولكن بعضهم تعب ومل بدون ان يصل الى نتيجة، فأمر الرهبان

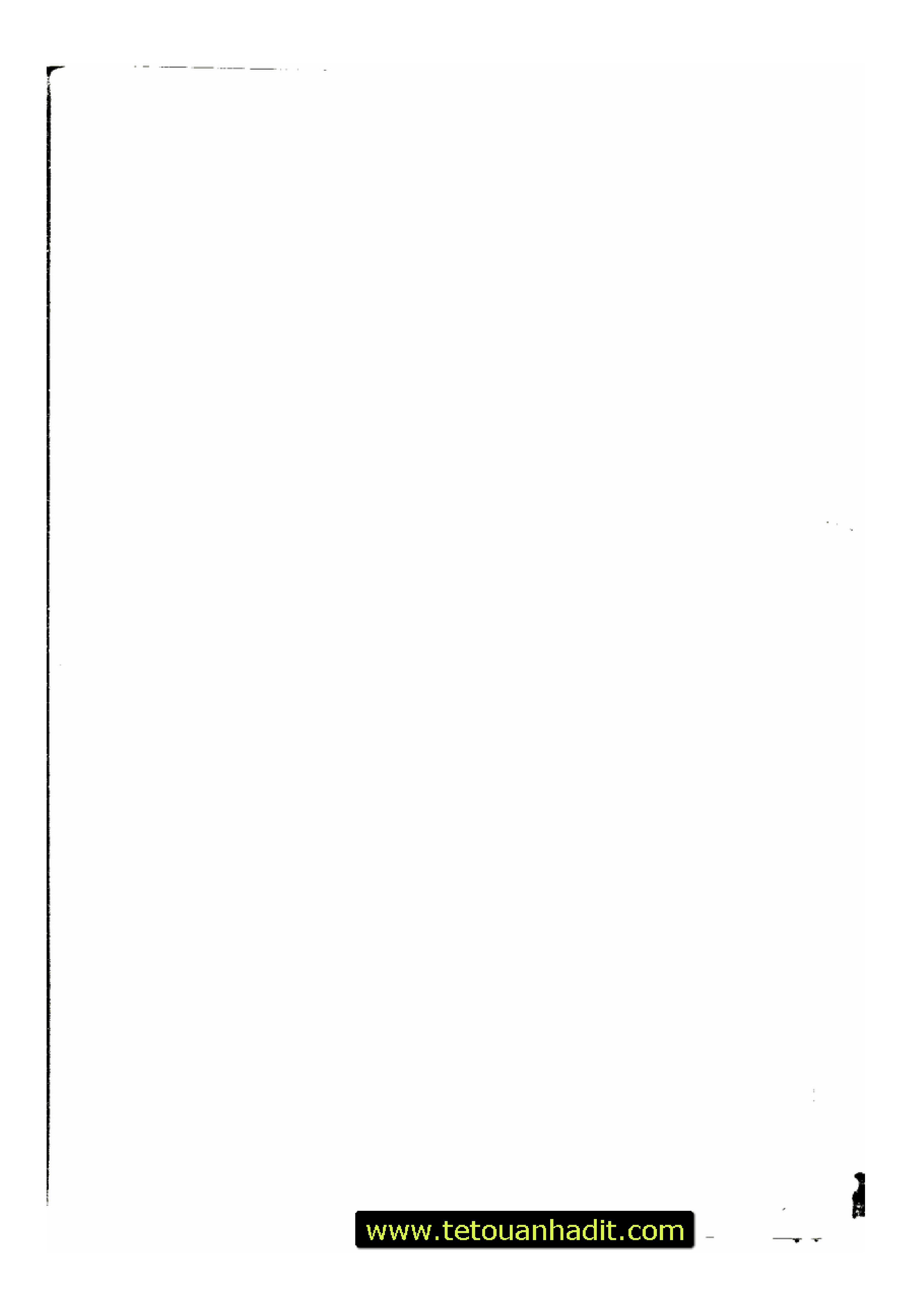


معركة دامية بين الموريسكوس والنصارى سنـــة 1569





المفاوضات من أجل تقليل عدد الموريسكوس سنـــة 1570



التعليم، ولكن بعضهم تعب ومل بدون ان يصل الى نتيجة، فأمر الرهبان بان لا يعطوا للموريسكوس الطقوس إلا إذا اعترفوا بخروجهم عن الدين. وكتب الملك يقول له « من المستحيل ان نصل الى نتيجة مرضية مع الموريسكوس، ومنهم من كان يسمح لهم بالحضور في كل الطقوس الدينية بالكنيسة، فكل واحد من المبشرين كانت له طريقة خاصة فيما يتعلق بالتبشير بين الموريسكوس (1).

عندما اعيتهم الحيل لجأوا الى التهديد باستعمال القوة فهددوا « موريسكو بلنسية بالطرد إلى داخل المملكة (2) ولكنهم لم يفلحوا (3) وأخيرا اتفقوا على إصدار قرار يقول :« أنتم لا تعترفون بديننا، اعتنقتموه وخرجتم عنه فأنتم كفار، وجب عليكم العقاب كمرتدين، ولكن سيسمح لكم إذا اعترفتم بذنبكم أمام محكمة دينية » وقد كان هذا القرار كتسلية من جانب رجال الدين لرجال محاكم التفتيش والملوك فقط. (4)

1) ESPULSIAN Justificada de Los Moriscos Españoles, por Pedro Agnur de Gordolia.

2) Lècadas, por Garpar Escolano.

3) Colección Diplomática.

4) Bulas del C / 9 / 1567 y 6 / 8 / 1575 y 28 / 2 / 1597.

فيليپ الثالث

مات فيليپ الثاني بدون أن تنتهي مشكلة الموريسكوس، وفي نفس السنة تزوج ابنه فيليپ الثالث في بلنسية، وفي الحين أصدر العفو عن كل نصراني جديد يعترف بأغلاط محمد، ويعترف بجرائمه التي ارتكبها، ويطلب العفو من الكنيسة. فتحمس القسس لهذا وأرسلوا مبشرين لغزو الموريسكوس، ولكنهم لم يفلحوا(1)، فاجتمعت لجنة لدراسة نقط هذا الشأن ثم قررت ما يلي:

أولا - الموريسكوس الغير متمسكين بالنصرانية حقيقة، يعتبرون كفارا !.

ثانيا - إذا كان من اللائق أن ننصر أبناءهم يجب التأكيد بأن آباءهم كانوا كفارا!.

ثالثا - اذا تحقق لنا انهم غير نصارى حقيقيين، فمن الأفضل أن لا نجبرهم على سماع الطقوس الدينية، وألا يتسلموا البركة والدعاء لاتقاء انتهاك حرمة الدين المسيحي والتلاعب به.

رابعا - هل من اللائق طرد معلميهم وفقهائهم من قراهم.

خامسا - هل يمكن السماح لهم بأن يصرحوا بالشك الذي يختلجهم في الدين المسيحي؟ فاتفقوا على أن يرفعوا هذه القرارات الى صاحب الجلالة ليبلغها الى البابا طالبا منه اصدار أمر يجعل حدا للمتنصرين ويدفعهم الى الاعتراف والتمسك بالدين المسيحي.

1) Colección diplomatica.

كل هذه المناورات وهذه المحاولات سواء من رجال الدين أو الحكومة كانت تذهب سدى مع موريسكو أراغون أو بلنسية، ويقول بعض المؤرخين «عندما رأى الموريسكوس كثرة الاجتماعات والقرارات دخلهم الرعب وتيقنوا ان كل ذلك من أجلهم (1) فابتدأوا يتجسسوا حقيقة الأمر، ولما علموا بكل شيء لجأوا الى طلب النجدة من قراصنة افريقيا كالعادة، وابتدأوا في القتل والنهب مؤلفين عصابات لذلك هاربين من الصلاة ومن الطقوس الدينية المسيحية.

وفي أوائل القرن السادس عشر كانت الشواطئ الاسبانية تعيش في خطر بسبب تهديدات قراصنة الاتراك، وخاصة شواطئ الابيض المتوسط، وكانت البحرية الملكية الاسبانية عاجزة عن صدهم رغم المناورات والحيل، حتى أدى الحال الى معركة لبانطو الشهيرة(2)، ورغم اتحاد بحرية بعض الدول الاوربية ضد الاتراك لم يجن من هذا إلا ضياع المال والرجال، فلقد عقدت اسبانيا معاهدة صلح مع فرنسا وانجلترا ومقاطعات فلاندس، وبهذا استطاعت القطع البحرية الرجوع الى قواعدها لحماية السواحل الاسبانية من غارةالاتراك؛ والمغاربة الذين كان الموريسكوس يدلونهم على الطريق ويطلعونهم على عورات البلاد، يسهلون لهم النزول بشواطئها، وقد عقدت المعاهدة المذكورة في شهر أبريل سنة 1609، وبهذا أمنت اسبانيا نفسها من القوات الاوربية التي كانت معها في حرب، واستطاعت أن ترجع بقوتها الى أرض الوطن لتواجه بها غارات قراصنة المسلمين من مغاربة وأتراك، وكانت

---

1) Marcos de Guadalajaras.

1) توجد مخطوطات ومطبوعات كثيرة بالمكاتب الاسبانية تتعلق بالمعارك البحرية لذلك العصر بين المغاربة والنصارى وغيرهم وكذا عن معركة لبانطو.

الجواسيس تعلم المغاربة والاتراك، إما كتابة أو بواسطة أشخاص بخروج قافلة تجارية بحرية ليعترضوا سبيلها، وكم من مرة عرضوا عليهم احتلال بعض المدن، وقد أدى الحال الى ان ذهب أحد الموريسكوس من قرطبة، وتقابل مع الخليفة العثماني يعرض عليه فكرة احتلال اسبانيا وإدخالها في حظيرة الاسلام مرة أخرى، مؤكدا له ان اسبانيا يوجد بها خمسمائة ألف مسلم مع اتباعهم، وينتظرون مبايعته ملكا وسيدا(1)، وقد رأينا غير ما مرة محاولة الموريسكوس في هذا الشأن وخاصة في عصر كارلوس الخامس وفيليب الثاني، وهكذا نجد دخول القرن السابع عشر فاتحة عهد جديد في حياة الموريسكوس.

كان بطريريك دي انطوكيا متحمسا في عمله التبشيري، وقد أسس معهدا لإرشاد وتعليم النساء الموريسكيات (النصرانيات الجدد) لكن عمله باء بالفشل كسابقيه، فرأى انه من المستحيل متابعة عمله، ففي عام 1602 رفع الى الملك تقريرا يقول فيه: «إنه من الضروري طرد السلالة مرتدة». كما صرح أسقف بلنسية لفيليب الثالث «بأن جميع الموريسكوس يعتبرون كفارا، لا فرق بين موريسكو مملكة وأخرى، وكلهم مع الترك والبربر وباقي أعداء اسبانيا، فالقسس يعمدونهم تحت الضغط وهم يعلمون انهم يرجعون في الحال مسلمين، يسرقون الرجال والأطفال والنساء ويحملونهم الى افريقيا ليكثروا هناك من الكفار وأعداء الدولة».

1) Coleccion diplomatica



الأتراك يأخذون الأسرى في عرض الشواطئ الإسبانية سنة 1534

كانت مظاهر الفوضى والانحلال في اسبانيا متنوعة ومتعددة. وكانت الحالة على وشك أن تصير كما كانت عليه في عصر الملك رودريگو آخر ملوك القوط، وهكذا نجد فيليب الثالث لم يعر الاهتمام الكافي لاقتراح أسقف انطيوكيا، حتى أدى الحال الى اكتشاف مؤامرة ومخزن للسلاح ببلنسية وبالاندلس للقيام بحركة جديدة، كان المدبرون للمؤامرة على اتصال بالاتراك والمغاربة بل حتى مع الفرنسيين، وقد بعث الاسقف المذكور مذكرة أقوى من الاولى الى فيليب الثالث يبين له فيها واجبه الديني المقدس الذي يحتم عليه القضاء على الكفار ويذكره بما فعله أبوه وجده من ادخالهم في النصرانية عبثا، وأحسن طريقة والحل الوحيد لصالح الانسانية هو تطهير المملكة من وجودهم، ويذكر له الثروة والعمل والاقتصاد الذي يسيطرون عليه، لقد كان هذا القسيس شديدا، وكان يرى ما يلحقه الموريسكوس من الاضرار بالنصارى، فمرافق الحياة كلها بيدهم، من صناعة وتجارة واقتصاد وكل ثروة البلاد زيادة على عرقلتهم لقوافل النصارى التجارية أثناء مرورها بالمناطق المسكونة بهم، فرغم انهم يسكنون في أماكن ضيقة وأراضي لا تنتج شيئا، كانوا بكدهم ونشاطهم يصيرون أغنياء، رغم الضرائب التي كانوا يؤدونها لأسيادهم، ومع هذا كله فكانوا أغنى من النصارى الذين يسكنون أراضي خصبة، ولا ضغط عليهم، بل عندهم كل التسهيلات من الحكومة والكنيسة، ولكنهم كانوا يعيشون عيشة الفقر والتقتير، مما يعطينا نظرة واضحة عن نشاط الشعب المسلم في جميع ميادين الحياة

في ذلك العصر(1) وهذا ما كان يخشاهُ رجال الدين، كيف يمكن القضاء على شعب وبيده ثروة البلاد وخبرة العمل؟ كل هذا كانت تحسب له الكنيسة الف حساب وتخشى عواقبه، اما الحكومة فلم يكن يهمها هذا بقدر ما كان يهم رجال الدين، وكل شعب سيطر على ثروة شعب آخر وصل الى مبتغاه، كما نرى الآن اليهود في أمريكا حيث تمكنوا من السيطرة على اقتصادها فساندتهم وعاضدتهم في تأسيس دولة لهم بفلسطين.

ويقول بعض المؤرخين في كلامهم عن الموريسكوس «ان الزراعة والتجارة والمهن الميكانيكية والفنون العملية كلها كانت بيدهم حتى صاروا سادات اسبانيا وملاكيها، كانوا يقتصدون في أكلهم وملبسهم وفي اثاث بيتهم حتى استطاعوا أن يسيطروا على كل شيء ويضاهوا أشراف اسبانيا الذين هم أقل منهم عملا وأكثر قرفا، لم تكن حالة العزوبة مسموحا بها عندهم، إذ كانوا يتزوجون وهم ما زالوا شبابا، لم يدخلوا الأديرة ولم يدفع رجالهم عشر الحرب ولذلك لم يدعوا اليها ولم يهاجروا لأمريكا، كانوا يعيشون عيشة طيبة رغم الضغط وكثرة عددهم فكان ينظر اليهم كأعداء الدين من جانب النصارى.

اما اشراف بلنسية فكانوا يعارضون مشروع الطرد كما عارضه اشراف اراغون في عصر كارلوس الخامس، لأنهم كانوا يجلبون من ورائهم أموالا طائلة كانوا يدفعونها لهم مقابل أرض يقطعونها لهم للزراعة كمعمرين، فأجابوا القسيس على تقريره الثاني المرفوع للملك بلهجة شديدة قوية يعارضونه فيه ويقولون:«ان هذا من اختراع رجا الدين، والدين لم يأمر بهذا، وان هذا تأويل للعقيدة في غير محله، وانما مصدره عداء شخصي بين النصارى القدماء، والباعث عليه هو هذا

1) Coleccion diplomatica

الاسم الموضوع الذي ينادي للتمييز بينهما :« نصراني قديم ونصر ـي جديد » ويقولون :اذا أصبح الشخص نصرانيا فلا داعي لمناداته بالنصراني الجديد.

رغم هذا كله، فعلاقة الموريسكوس بالأتراك وفرنسا والمغرب كانت مازالت موجودة، حتى كادوا ان يعرضوا اسبانيا لخطر الاستعمار مرة اخرى (هكذا حسب المؤرخين الإسبان) باتفاق موريسكو بلنسية واراغون وكاطالونيا وقشتالة مع الشعوب المتقدمة الذكر، غير ان بعض القسس و نهم فيلشيانو ذي فيكيرو ذي سيكوربي أشاروا ينصحون أنه من الاصلح أن يكون تعليم الموريسكوس حسبما أمر به الكتاب المقدس. لا يلجأون الى الضغط، لأن هذا يجلب عواقب وخيمة على تجارة اسبانيا وزراعتها، وهكذا اتفق بعض الاشراف المحايدين وبعض رجال الدين بأن يكتبوا للملك يبينون له كل ما يعود على الوطن من تدهور في الاقتصاد والخطر الذي يأتي من جراء طرد أسر بأكملها تعد من العناصر النافعة والمفيدة والمنتجة. وقد نزل البابا باولو الخامس على رغبة طلب بعض الاشراف ورجال الدين كما ذكرنا، وكتب باختصار في عام 1606 إلى قسيس بلنسية لأجل أن يستدعي هذا قسيس ارئويطا وطرطوشة وسيكوربي وبعض رجال الدين الآخرين للاجتماع لدراسة طرق تبشير الموريسكوس وادخالهم في حظيرة النصرانية بطرق لينة صالحة لهم بصفة نهائية، وممن حضروا هذه الجلسة أيضا نائب الملك ببلنسية وأشخاص من جميع الطبقات، وتناقشوا في نقط عدة ومنها ما نوقش من سنوات مضت فأعيد فيها النقاش من جديد وهي: هل النصارى الجدد

1) Coleccion diplomatica

مجدون؟ وهل يمكن تنصير آبائهم وأبنائهم أيضا؟ وهل يمكن اعطاءهم الحرية التامة بأن يصرحوا بالمسائل التي يختلجهم فيها الشك في الدين المسيحي وبدون ضغط عليهم؟ واستمرت هذه الجلسات الى مارس 1609، والموريسكوس اذ ذاك يحددون علاقاتهم بالخارج، وابتدأوا يزرعون الرعب في قلوب النصارى وساعدتهم الطبيعة على ذلك، فقد حدث في تلك السنة هجوم نوع من الحيوان شبيه بالجراد يدعى كروياس GAULLAS ثم ظهرت حركات غير عادية في الطبيعة وشهب لامعة وصواعق واهتزاز في الارض، مما بعث الخوف في قلوب الاسبان وجعلهم يشكون بأن كل هذا مصدره معاملتهم السيئة مع المسلمين، ومع ذلك فالطلبات كانت تتوالى على الملك بالطرد(1).

ابتدأ الموريسكوس يعقدون الاجتماعات للنظر في هذا الشأن واستخاروا في القضية (من الاستخارة) وصاروا يبثون الدعاية فيما بينهم ضد النصارى ويقولون :«إن النصارى يراقبوننا ويريدون أن يوقعوا بنا، وكذلك محاكم التفتيش، وانهم سيسجنوننا ويأخذوننا للمراكب البحرية للجذف، وقد فعلوا بهم هذا في عام1608 حتى أدى الحال الى هجرة أسر بأكملها، وفضلوا أكل الخبز في أمن وسلام على الحياة تحت الاستعباد، على أن يعيشوا كما هم، وقد هاجرت عائلات الى فرنسا من موريسكي ووبدا UBIDA وبايثا BAEZA وفيا دي كيسادا VILLA DE QUESADA بعدما باعوا أملاكهم بأبخس الأثمان.

بعدما أنهى المجلس عمله ببلنسية وحرر كل شيء، أرسله إلى مدريد للمصادقة عليه، بعد ذلك ابتدأوا يتخذون الاجراءات لتعليم النصارى

1) Coleccion diplomatica

الجدد، كما صاروا يتخذون الوسائل التي تبيح لهم ضرورة الطرد، وقد دافع عنهم بعض أفراد المجلس ممن كانوا يخدمونهم ويقومون لهم بالزراعة والصناعة وغيرها، لأنهم كانوا يخشون أن تبقى لهم أراضيهم بيداء قاحلة بدون أن تنتج، خاصة أراضي أراغون وبلنسية والأندلس، فالصناعة والفنون ستذهب بذهابهم لأنهم هم وحدهم يشتغلون، اما أنصار الطرد فكانوا يعتقدون ان الاسبان سيقومون بهذا العمل إذا لم يوجد أحد، بل يفضلون أن تبقى الارض عاطلة من ان يتحملوا داخل الدولة عدوا سيكون سببا في تهييء جيش وتسهيل احتلال الوطن من جانب أمراء اعداء.

ويستطرد خانير قائلا :« أتى شيء لم يكن في الحسبان هو الذي عجل بطرد الموريسكوس، ذلك ان الدوكي دي ليرما كان صديقا حميما للملك فيليب الثالث، فقد نزل هذا الدوكي برجال مسلحين الى الشاطئ وعمل عمله واعلم الملك بذلك، ولقد بين مجلس بلنسية الحربي للملك العواقب التي ستنجم عن الطرد، ولكن بيانه لم يحظ بالقبول. ومما أشار المجلس في تقريره إلى الملك أن الكنيسة ستصير فقيرة وكذلك الاشراف، وثروة الملك ستقل، لأن الموريسكوس هم اليد العاملة في الدولة اما مجلس الوزراء فأجاب على ذلك ولم يتأخر في الأمر بدعوى ان الشعب الموريسكي غير هادئ، وأعطى غير ما مرة الدلائل القاطعة على مطالبته بالاستقلال وتشبثه بحريته وإقامة ملك ودولة وكانوا ينتظرون ان تحدث عملية قيام حركة حربية، ولكن شيء من هذا لم يقع، وانتهى كل شيء ووحدت اسبانيا دينيا بعد توحيدها سياسيا منذ قرن

1) Coleccion diplomatica

وربع من الزمن» ولله الأمر من قبل ومن بعد «إن الأرض يورثها من يشاء من عباده».

كيف نظمت عملية طرد الموريسكوس

كانت بلنسية دائما مهددة من قبل الاتراك والمغاربة لكونها على شاطئ البحر الابيض المتوسط، وإليها ترد السفن التي تأتي من اسيا ومن العالم الإسلامي، ولكونها من المدن الغنية بالتجارة والصناعة والزراعة(1)، ولكون جل سكانها من الموريسكوس وهم فيها اليد العاملة وأصحاب الأموال.

كان النصارى يخشون قيام حركة واسعة النطاق في حالة الطرد النهائي للموريسكوس، لذلك أشير على أرباب الحل والعقد بطرد من هم مقاومون ومتعصبون لما يعلمون عنهم من اتحادهم في الداخل مع بعضهم، وفي الخارج مع الاتراك والمغاربة، وكان البلنسيون أخوف الناس، فنظم وزراء الدولة هذه الحركة بجيش قوي مختار من المرتزقة وعززوا به أمكنة الخطر، وأنزلوا جيشا آخر من البحر في ألقنت ALICANTE وغيرها من مراسي البحر الابيض المتوسط، وكانت هذه الوحدات البحرية مؤلفة من وحدات غير اسبانية، منها: وحدات جنوة، ولمباردبا: ونابوليس، وصقلية والبرتغال، وقطعوا مياه بلنسية عنهم، وهكذا تعاونت ممالك إيطاليا مع إسبانيا في طرد المسلمين، ولما هيئ كل شيء انتظروا إصدار أوامر الطرد، كان قائد أسطول الاسبان يفكر في النزول الى البر ليعزز جبال اسبدان التي كانت منها الثورة الاولى بعد سقوط غرناطة.

1) Relacion del rebelion y expulsion de los Moriscos del Reino de Valencia, por Antonio De Correl y Rojas.

لقد اختار فيليپ الثالث لهذه المهمة الشاقة رجلا هرما من أخلص الناس له، حيث كان في خدمة والده الملك السابق فيليپ الثاني من قبل، واكتسب شهرة لشجاعته في حرب فلاندس يدعى AGUSTIN DE MEJIA وقد تقلد عدة مناصب في الحكومة.

وصل هذا الشخص إلى بلنسية في أواخر غشت واعلم بوصوله قس المدينة ونائب الملك بها، ولم يتأخر صدور المرسوم الملكي في هذا الشأن، ففي يوم 23 شتنبر سمع الموريسكوس قراءة المرسوم الملكي(1) بالشوارع والساحات يعلم بطرد كل من يتلاعب بالدين وغير مخلص لملكه.

لم يحكم عليهم بالموت ولم تصادر أملاكهم أو تنزع منهم أموالهم، وإنما أمروا بالحضور مصحوبين بأمتعتهم وأموالهم في ظرف ثلاثة أيام ليحملوا في مراكب بحرية إلى خارج إسبانيا، ويستثنى من هذا كل الاطفال البالغ عمرهم اربع سنوات اللهم إذا لم يقبل آباؤهم أو أولياء أمورهم، وسمحوا لعشرة من الموريسكوس بالعودة من المغرب لاجل أن يطلعوا اخوانهم على المعاملة الحسنة التي عوملوا بها من قبل رجال البحرية اثناء سفرهم. وينص المرسوم على ان يسمح بالاقامة في اسبانيا لستة أسر في كل مائة أسرة لاجل المحافظة والسهر على فنون الزراعة(2).

سمع الموريسكوس قراءة المرسوم، فصاروا يبكون رجالا ونساء وأطفالا على فراق وطنهم الذي عاشوا فيه ودرجوا تحت سمائه، سيغادرونه الى مكان لا يدرون ماذا سيكون مصيرهم به.

1) Relacion del rebelion y expulsion de los Moriscos del Reino de Valencia, por Antonio De Correl y Rojas.

2) كان الموريكوس هم أدرى بهذه الفنون من النصارى.

اعترض بعض من ألفوا حياة الموريسكوس من النصارى الاسبان على الأغلاط التي ارتكبت في طرد الموريسكوس والتي لم تعد على الوطن، إلا بالخسارة والتدهور الاقتصادي والصناعي والتجاري، ورغم مجهودات الاشراف واتحادهم ضد فكرة الطرد -كما قدمنا- لم يحصلوا على طائل، وذهبت كل محاولاتهم أدراج الرياح(1).

لقد عين حكام للقيام بهذا العمل المشين، فصاروا يجمعون من صدر عليهم الأمر بالطرد، يأتون بهم جماعات ويساقون كالأغنام ليشحنوا في المراكب لحملهم الى افريقيا، ولم يرد أحدا ممن استثناه(2)المرسوم بالبقاء ان يغتنم حريته بل فضلوا الخروج، فكان منظرهم مؤثرا جدا، كانوا يبكون ويقبلون رمال البحر مودعين أرض الوطن العزيز، ويقول بعض المؤرخين: إن الموريسكوس كانوا يلاقون الطرد والإهانة حتى من المغاربة أيضا، حتى انهم كانوا (أي المغاربة) يعتقدون ان الموريسكوس متنصرين باطنيا كما كان النصارى يعتقدونهم مسلمين باطنيا (وهو الحق)، فكانوا مضطهدين من الجميع، ويظهر هذا في خطبة أحد فقهائهم سنوردها فيما بعد، ويقول أيضا بعض مؤرخي حياة الموريسكوس «إن الموريسكوس قوبلوا بالترحاب من جانب التونسيين أكثر من المغاربة».

قامت المراكب بسفرين للمغرب، كلاهما تم في هناء شامل، وكانت مراكب الحكومة هي التي تقوم بهذا العمل، كان عدد المطرودين في هذه المرة سبعين ألف نفر، ومنهم من يقول انه كان أقل من هذا العدد، لكن الوثيقة الرسمية تثبت أنه عند قيام ثورة گوادا ليسطي في 27 اكتوبر

1) WATAS Y INSTRUCCIONES.
2) COLECCION DIPLOMATICA.

عام 1609 خرج من بلنسية ستون ألفا فقط، ولقد أحدث منظر الطرد في نفوس من بقوا حقدا وعداوة لا تتصور، حيث انهم يشاهدون اخوانهم وأقاربهم وافراد عائلاتهم يساقون كالاغنام للشواطئ، يشحنون في المراكب تاركين بيوتهم وأمكنتهم ومنتوجات ايديهم في الزراعة والصناعة، أطفالهم يبكون ونساؤهم تعول، وشيوخهم يتألمون وهم يستغيثون ولا يغاثون، وكذا انتزع قسم من أملاك من بقوا باسبانيا، كل هذا زاد في نفوس من سمح لهم بالبقاء بغضا وحقدا على الاسبان، وجل من بقي محصورا في الشاطئ كالحيوانات، وكل من صدر عليهم الامر بالابحار تطوقهم الحراسة الشديدة، ويقال ان أول مكان وقع منه الابحار مكان يسمى القصر، وقسم أبحر من PIENOCETE، وكان الابحار في مراكب فرنسية، اما المبحرون فكانوا يقولون لمن بقوا:« سنعود قريبا بالنجدة والعدة والسلاح من المغرب لنثأر »، ومن بقي منهم انتزع منه السلاح. لم تكن نفوسهم مطمئنة لهذا السفر فكانوا يقولون:« من يضمن لنا سفرا أمنا، من الممكن ان نقتل اثناء عبورنا للمضيق ونطرح للسمك، ومن ينقذنا من الجيش ورجال البحرية، وهم يعلمون اننا نحمل معنا أموالا وثروة، ومن يضمن لنا شرف زوجاتنا وبناتنا من رجال الجيش(1)؟

لقد رجع عشرة من اخواننا وحدثونا عن عبورهم للمضيق، انه كان طيبا، ولكن من الجائز أن يكون العبور في هذه المرة سيئا، فنعرض نساءنا للخطر وحياتنا لسلاح الاسبان، ويقول بعض المنصفين من الاسبان:« كان من الواجب علينا النزول عند رغبتهم، وإرسال شخصيات مكلفة بهم الى أن تتركهم في الشاطئ الآخر بسلام، لكن رغباتهم لم تلب،

1) COLECCION DIPLOMATICA

فكانت نية النصارى سيئة، لذلك كانوا يعارضون في فكرة بعضهم الحسنة، كانوا يريدون الانتقام من الماضي فابتدأوا يعترضون سبيل المطرودين، يقتلون ويسرقون وينهبون، فاضطروا إلى الرجوع لأماكنهم والدفاع عن أنفسهم، إلى أن أتت قوات الحكومة لنجدتهم، وصارت تقبض على المجرمين وتعاقبهم بالشنق في الساحات والميادين(1)، ثم ذهبوا الى المراكب محروسين بالجيش وببعض الاشراف من سلالتهم نخص بالذكر منهم الدوكي دي كانديبا ماركيس دي البيضا وغيرهم، وفيهم من ذهب الى وهران كالدوكي دي ماكيدا وأتباعه، ثم دخل الطمع في نفوس من كان بيدهم الحل والعقد في مسألة الطرد والاشراف الذين كان لهم أتباع بالاستيلاء على أملاك الموريسكوس بدعوى انهم يبيعون أملاكهم بأبخس الاثمان ليصحبون معهم المال، ومنعوهم من بيع كل ما يملكونه من فواكه وثمار وأملاك وغير ذلك، كذلك منعوا النصارى من شرائها ليختصوا هم بذلك، ثم أتاهم بعض من طرد سابقا بمراكب اشتروها خاصة بهم ليكون سفر اخوانهم فيها أضمن، ولكن شراء هذه المراكب كانت حيلة وشركا نصب لهم، فأكثر العائلات الموريسكية التي فضلت الذهاب إلى افريقيا، صارت ضحية السرقة والنهب والقتل ورميهم في البحر اثناء عبورهم المضيق على يد اخوانهم حتى قال بعض خطبائهم :« لم نبق محبوبين عند المسلمين حيث يظنون انا تنصرنا، ولا عند النصارى لأننا أعداؤهم، حيث يعتقدون اننا نخفي الإسلام »(2).

---

1) COLECCION DIPLOMATICA

2) من مخطوطة بخط موريسكي هاجر الى المغرب نقلتها من المكتبة الكتانية بفاس يرد على من يزعم أن موريسكوس تنصروا باطنيا ويأتي بالدليل على ذلك، وسنذكر نص المخطوطة الكامل في هذا البحث إن شاء الله.



لوحة تعبر عن طرد الموريسكوس سنة 1609

ومن أمثلة الفضائح التي ارتكبها الموريكوس مع اخوانهم اثناء عبورهم المضيق افتضاض بنت امام والدها وألقاها في البحر، ولم يجد نفعا الاتسغاثة والدموع والرجاء وبذل المال فيها، ومثال آخر لبنت القي بها في البحر وهي تسبح وتقترب من المركب تريد النجاة، والسفاك الذي ألقاها يضربها بالجداف الى أن قتلها، وغابت عن الانضار وضمها موج البحر بين أحضانه. ومن الأخطار والمصائب التي لاقاها الموريسكوس عند ذهابهم الى الشاطئ لركوب السفن زرافات ووحدانا تعقبهم النصارى من رؤوس الجبال وترميهم برصاص مسدساتهم، كما يفعل الإنسان مع الحيوانات المتوحشة. وماذا كان سيقع لو تعصب الموريسكوس عن ركوب البحر؟ »، «وفعلا قد خالفوا الأمر، فابتدأوا يعلمون بعضهم بعضا، من قرية الى أخرى، ومن بلة الى بلدة، جاعلين علامة لذلك، مستهزئين بأوامر الحكام، يشعلون نار الثورة والفتن، لكن الحكام صاروا يراوغون ويصنعون بعدم اعطاء أهمية لذلك ليمكنهم من بعد، ان يقتلوا ما بقي فتكون أقلية ليمكنهم التغلب عليها بسهولة ولكنهم عادوا فعدلوا عن هذه الفكرة، في تلك الاثناء أتى موريسكو FINESTRAD SELLA RELLEN يحملون طبولا في صفة صناديق واعلاما كأعلام الكنيسة وصعدوا الى الجبال في 23 اكتوبر يكتسحون كل ما وجدوا أمامهم، اما سكان GUADALTE فإنهم بقوا في واديهم الى أن جمعوهم مع جيرانهم وبعض سكان القرى من نفس المقاطعة، فأشعلوا النيران ايذانا بعدم الرضى، ثم سرت نار العصيان بين أهالي Muela de Cortes Comfrens Vicar (1)، فقاموا بالثروة يقودهم زعيم أو زعيمان

1) Expulsion de los Moriscos Rebeldes de la Sierra y Muela de Cortes. Por Simon Zapata

بلقب "ملك" يدعى : Geronimo Milliné من• Confredes ثم اختاروا رأس Turgi لأنه أعلى من الاول(1)، لقد عرض موريسكو بلنسية الأمر على عدد من الفقهاء ليكونوا رؤساء لحركتهم، ولكنهم رفضوا خوفا من النصارى، وأخيرا قبل أحد "الموريسكوس" من الاغنياء وكان من موضع يسمى Catadan وهو Turigi المذكور آنفا، وهكذا قبل الشخص الرئاسة ليحقق تنبؤات بعض الكتب، ثم أخذ الساحة وجلس على كرسي واخذوا يقبلون يديه ويبايعونه، ثم عين حاكما عاما لشؤون العدل(2) الفقيه أميرة AMIRA وصار يحصن الجبال ويعززها بالقوات.

كان هاذان الزعيمان (Geronimo Millini y Turgi) ذوي طبع خشن غير هادئ، وكانا من نسل وضيع غير أصيل ولكنهما كانا أصحاب ثروة. أخذ الثوار معهم كل ما يملكون من مال، وابتدأت الأوامر تعطى بكل صرامة وشجاعة وتوفيق، فكونوا مجلسا من أفضل الاشخاص، وعينوا ضباطا وطلائع، وبعثوا قسما مهما من رجالهم للبحرية، ثم أرسلوا سفارة للمغرب، وبعثوا يعلمون اخوانهم في اراغون وكاطالونيا والأندلس والقشتاليين(1) ويقول بعض المؤرخين «ان موريسكو بلنسية اقدموا على هذا الأمر ضد الملك بدون ان يكون لديهم سلاح ولا معدات، فرفعوا الأعلام وكلموا الطول، ثم يقول «والذي يؤسف له انهم صاروا على اثر من قاموا بالثورة في البوشارات عام 1568 فلم يبتكروا طريقة اخرى، فدخلوا أماكن النصارى، وذبحوا الكثير منهم، وهتكوا حرمات الكنائس وكسروا الصلبان، ويقول المؤرخون أيضا انهم كانوا متكلين على الاعانة من الخارج، ولكن لم ينجدهم أحد لا من المغاربة ولا من الاتراك، فكانت

1) COLECCION DIPLOMATICA

2) Antonio Corral y Rajas.

البحرية الاسبانية تجول في مياه بلنسية تعرقل كل من يريد النزول للأرض لإعانة الموريسكوس، ولكن روح الحقد والعداوة هي التي دفعتهم الى اقتحام الاخطار، كان يعوزهم السلاح، وكانوا يدافعون بما يغنمونه من ايدي اعدائهم في قطع الطرق، وكانت حصونهم هي الجبال، فيجعلون من صخورها وأحجارها أبراجا، ويكدسونها في المعابر والمضايق ليلقوها على من تحدثه نفسه بالوصول اليهم.

وصل لعلم نائب الملك خبر ثورتهم فلم يعطها أهمية، وعدها مناورة سياسية، ثم كون جيشا وأرسله لقمع هذه الثورة، ولكن هذا الجيش لم يكن ذا أهمية كبرى لقمع أمثال هذه الثورات ولا لترك الموريسكوس هادئين.

نظم الثوار جيشا من المتطوعين (ميليشيا) من المرتزقة، ثم أتت قوات الحكومة قرب مكان الموريسكوس وبعثت لهم اربع رجال للتفاوض معهم في شأن الصلح، وكان اثنان من هؤلاء المبعوثين قد رجعا من افريقيا ليعلما اخوانهم بحسن المعاملة اثناء عبورهم ونزولهم بأرض المغرب، ويقنعانهم بعدم الضرورة لهذه الثورة، ورغم السفارات التي بعثها الثوار فإنهم لم يحصلوا على نتيجة، وبالعكس فقد اضرت بهم وجعلت الاعداء يعتقدون بأن حركتهم ثورة يخشى عواقبها، وجعلهم يعدلون عن المحادثات والتفاهم معهم الى العنف والقوة، فرأوا من الضروري ان يقمعوا هذه الحركة بقوة السلاح، فذهب الجيش في اثرهم حسب القوانين الحربية، فقسمت قوة الحكومة اقساما وحاصرتهم من جميع الجهات قرب وادي Villa del Agmar، فلم يستطع اولئك الثوار الصمود أمام خيول النصارى فأخفقت محاولتهم(1).

1) Antonio Corral y Rajas.

اختار gustin محل قيادته Villa de Musla وعدد دورها ثمانون، كلها مسكونة بالنصارى القدماء، ومن هناك استطاع ان يستولي على حصن Azabanas بدون أدنى مقاومة تذكر، اللهم إلا بعض معارك ضئيلة ذهبت ضحيتها أرواح قليلة، وكان المحل المحتل يسمى Benicembla وبه حصن يدعى Azabanas المتقدم الذكر، وكان هذا المكان ذا أهمية، لأنه مفتاح الخط الحربي لثافرا Zafra وبهذا سقطت في ايدي النصارى أول قمة من السلسلة الجبلية التي كان الموريسكوس متحصنين بها، وبسقوطها حل مشكلة الدخول الى الوادي والاستيلاء على القرى والمداشر التي كانت صالحة لمعقل منيع للثوار.

كان القائد يحسب لاخماد الثورة حسابا، فلذلك قبل ان يقدم على هذا الامر جمع بعض الفيالق التي كانت معسكرة بالسهول وكان عدد رجالها أربعة آلاف، وأربعة واربعين، ومن بينها قدماء المحاربين من المرتزقة والمتطوعين وبعض جنود مقاطعات اخرى(1).

دقت ساعة معاقبة خوارج بلنسية من الموريسكوس، فافتتحت الحرب من قبل ثوار الموريسكوس الذين ابتدأوا يلقون الاحجار من رؤوس الجبال على الجيش الذي يعسكر بـ Guadales y Murla فعبثا التجأت أسر الموريسكوس بأطفالهم الى حصن Benimaurel وعبثا حطموا الاحجار الكبيرة ليلقوها على الجيش، واطلقوا النار عليه بمسدسات بالية رديئة، ولم تفدهم قلة السلاح الذي كان لديهم والذي غنموه من اعدائهم في المعارك. لقد كان قائد النصارى Meja شجاعا وله تجاريب في الحروب، فهجم بفيلقه الى ان صعد الى الاعلى ونادى: لقد وجد نصراني صورة العذراء ملقاة ومغمدا خنجر، لجأ الى هذه الحيلة ليوقظ الروح الدينية

1) Antonio Corral y Rajas.

في نفوس النصارى والتعصب الكاثوليكي الكامن فيهم ضد كل من يمت الى الاسلام بصلة، فأحدث هذا النداء وهذا الخبر المزيف وهذه الدعاية اثرا في نفوس جيش النصارى فهجموا على الموريسكوس فلم يستطيعوا الصمود أمامهم، فوقعت مجزرة خرج زعيمهم من حصنه ليرى ما حل بهم ويوقف الهزيمة، فسقط صريعا من جراء طلقات نارية من جيش النصارى، وبهذا سقطت في ايديهم بلدة Benemaurel ودخلوا كنيستها المحطمة يصلون شكرا على الانتصار، بينما ثوار الموريسكوس تابعوا اطلاق النار في داخل الجبال ضد النصارى. اعطى ميخيا الأمر للجيش بالاستراحة واكتفى بالاستيلاء على الحصن المذكور. اما لتنفيذ بقية الخطة الحربية فقد لجأ الى وسيلة اخرى، هي تحويل الماء من مجراه الطبيعي وإقامة الحصار على الثوار ليموتوا عطشا، وفعلا أدت هذه الوسيلة نتيجتها المرجوة، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى أتى الموريسكوس يطلبون الاستسلام والذهاب الى خارج اسبانيا عاجلا، وقد أعطيت لهم ضمانات على حياتهم بامضاء ضون أغوستين، فبدأوا يخرجون من حصونهم وقد اضر بهم العطش، يقعون كالموتى على منبع الماء هناك، ووضع لهم ميخيا كضمانة للصلح علما ابيض يمرون امامه يطرحون ما عندهم من سلاح ويهبون من ناحية برميخا، كان يقدر عددهم بثلاثة آلاف، فكان الاطفال والنساء يتهافتون على الماء تهافت الفراش على النور، فمنهم من شرب حتى مات من كثرة الشرب، ثم ثاروا يساقون الى البحر كل الف على حدة بحراسة وهم في أسوأ حال، بعضهم كان جسمه عريان، والبعض الآخر يلقي بنفسه في البحر، وقد مات منهم الكثير قبل الركوب، ومنهم من باع فلذة كبده للنصارى بقليل من التين أو قطعة من الخبز، وكان موريسكو Guadaleste يخافون الذهب

الى افريقيا، لأن الأفارقة حسب اعتقادهم يقتلون الموريسكوس لتنصرهم، ومنهم من كان يخشى الاستسلام للنصارى فيقتلوه ويتهمونه بالتلاعب بالدين المسيحي، فكثير منهم كانوا يختبئون في مغاور منحوتة في الأرض يغلقون عليهم بالجير ولا يتركون إلا فجوات صغيرة يدخلون منها الأكل(1) وعلى كل حال فقد كانوا في حالة يرثى لها.

لم يكن هذا آخر المطاف، فقد بقي Turgi الذي بويع ملكا رافعا علم الثورة، رغم ان نائب الملك قد منح له رخصة المرور لركوب البحر ومغادرة اسبانيا، فبقي يقاوم، غير انه خودع من طرف اتباعه، فقبضوا عليه وأتوا به لبلنسية راكبا على حمار، وقطعوا رأسه وعلقوه بباب المدينة كما فعل ابن عبو من قبل بابن أمية ملك حرب البوشارات.

يقول بعض المؤرخين «بعد هذه الثورة التي نتج عنها طرد عدد من أسر الموريسكوس، بقيت بلنسية وضواحيها كئيبة، وأرضها يابسة وزراعتها معطلة، في هذه الفترة صدر مرسوم ملكي يمنح 20 أسكودو لمن يأتي بموريسكي واحد، ليكون مملوكا للملك، فلقد بقي بعضهم بجبال مورسية وبلنسية، فكانوا يريدون جمعهم وابحارهم، فبلغ عدد من جمع للابحار مائة وخمسون الف شخص، لكنه لم يبحر منهم حتى النصف، اما الباقي فبقي بجبال مورسية وبلنسية تائهين يعيشون عيشة الحيوانات معرضين للصيد، فهذا يعطي لنا فكرة على ان الموريسكوس لم يخرجو كلهم من اسبانيا، بل بقوا فيها ولكن بقاءهم كان كموكب في وسط محيط تتقاذفه الأمواج هنا وهناك، فمنهم من نجا وخرج لأرض غريبة

---

(1) مثل هذه مغور توجد حد الآن قرب مدريد باسبانيا يسكنها الجيطان.

واندمج مع أهلها، ومنهم من بقي على تلك الحال الى أن مات أو تنصر(1).

عندما طرد موريسكو بلنسية وقع الاتفاق على طرد كل أسر الموريسكوس التي تقطن بالمقاطعات الاخرى كالأندلس وقشتالة وأراغون وكاطالونيا، وقام قسم من الجيش للقيام بهذه المهمة مع قطع بحرية كانت رابطة بمياه بلنسية كانت قد كلفت بعملية الطرد، وكان من المقرر أن تتعاون هذه القوة مع من ستلقى على كاهلهم هذه المسؤولية ممن سيعينون من قبل الملك لذلك، وسيشمل الطرد هذه المرة النصارى الجدد الموجودين في ممالك مورسية وغرناطة وجيان Jaen وقرطبة واشبيلية. وأسندت هذه المهمة الشاقة الى خوان دي مندوثا، وفي الحال نشر امر ملكي باشبيلية بتاريخ 12 يناير 1610 ينص على أنه نظرا لكون الموريسكوس يقومون بعمل عدائي متمثل في عدم الولاء للملك والامتثال لأوامره والتلاعب بالدين المسيحي واتفاقهم مع الاتراك، اقتضت مصلحتنا إخراجهم من اسبانيا مع ابنائهم داخل اجل ثلاثين يوما، ويمنع عنهم المرور ببلنسية واراغون، كما يمنع عنهم اخراج الذهب والفضة والحلي والنقود أو الحوالات، فلا يسمح لهم إلا بأخذ السلع التي اشتروها من أهالي المملكة، والنقود الضرورية التي يحتاجون إليها أثناء عبورهم، ويعطي لهم حق الاختيار في السفر إما في البر أو في البحر(2).

---

1) Expulsion de los Moriscos, por Marcos de Guadalaraja.

2) ربما يقصد المؤلف بكلامه هذا السفر بالبر أو البحر، فان عبورهم لافريقيا لابد وان يكون بالبحر، ان السفر بالبر لربما يقصد به داخل اوربا، فمنهم من دخل الى فرنسا واندمج مع أهلها حيث توجد عائلات فرنسية بألقاب عربية.

لقد وجد النصارى في بيوت الموريسكوس عند طردهم كتبا دينية ومصاحف قرآنية مكتوبة بالألوان الحمراء والزرقاء فتحقق لهم ان الموريسكوس لم يكونوا في يوم من الايام نصارى حقيقيين(1).

لما أتى دور موريسكيي الأندلس في الطرد لم يتركوا النصارى يفعلون بهم مثل ما فعلوا بموريسكي بلنسية، لأنهم علموا ان كل مقاومة ضد النصارى لا تجدي نفعا، بل ستعود عليهم بالويل والثبور، فخرجوا في عدد ثمانين الف نفس رغم رجاء بعض نبلاء مورسية للملك بترك البعض بالمملكة الذي هو ضروري للفلاحة والفنون، فلم يحظوا بتلبية رغبتهم، فأصدرت الأوامر لضون لويس فيخاردو باخراج ستة عشر الف شخص حالا، فأخرجوا بدون عناء، بينما الأمور جارية على هذا المنوال مع موريسكي الأندلس وبلنسية، إذ بالملك يأمر نائبه بأراغون ان يطلب من اسقف سرقسطة اطلاعه على حالة الموريسكوس الاقتصادية بتلك المملكة وان يفرض سلطته حتى لا تضطرب أحوالهم فيسيروا على نهج اخوانهم أو يحاولوا القيام بحركة ما.

استلم لويس فيخاردو مهمته في 15 نوفمبر 1609 وأول شيء قام به هو تعزيز حدود مملكة اراغون لاتقاء تسرب موريسكي بلنسية الذين فروا من البحار وتاهوا في الجبال كما قدمنا سابقا خوفا وهلعا، وهكذا اطمأن النصارى القدماء بالمرسوم الملكي نوعا ما، اما موريسكو اراغون وكاطالونيا فاستولى عليهم الرعب وصارت احوالهم مضطربة لما حل بإخوانهم في بلنسية وكانوا على علم بأن الدائرة قد تدور عليهم في يوم من الايام وخاصة ان النصارى القدماء كانوا يهددونهم باستمرار.

---

1) هذا يؤيد ـ كذا ـ خصوصا الموجودة بالمكتبة الكتانية بفاس.

وسينتقمون منهم كذلك، ولكن المركيس أراد أن يطمئنهم فجدد المرسوم الملكي الذي كان قد صدر في شأنهم بنزع السلاح منهم، ولكن رغم هذا الاطمئنان صار الموريسكوس يبيعون أمتعتهم وأملاكهم وحليهم بثمن بخس وبسرعة خوفا من أن يطبق عليهم قانون الطرد في يوم من الأيام فكانوا ذوي ثروة وغنى وكانوا لا يهدؤون ولا ينامون الساعات الكافية لأنهم يسهرون على جمع أموالهم وقبض ديونهم أخذا بالاحتياط(1).

لم يكن موريسكو كاطالونيا كثيري العدد، ولكن ثروتهم كانت كبيرة ومجاورتهم للبحر كانت تشجعهم على القيام بالأعمال العدوانية مما سبب في طردهم. إن الذي دفعهم الى العمل العدائي هم أهالي ليردة Lerida، ثم تهديد الشواطئ الاسبانية وجزر البحر الأبيض المتوسط من قبل فرنسا، فلم تكن علاقة اسبانيا بفرنسا على ما يرام في ذلك العصر، ثم الاضطرابات على حدود المملكة، ومملكة نابارا من جهة، مما عكر الجو بين الحكومتين، فهذا كله دفع بالحكومة الاسبانية الى القيام بطرد موريسكو اراغون وكاطالونيا في الحال، كما فعلت بموريسكيي بلنسية من قبل « رأى نصارى اراغون الخسارة التي ستلحقهم من جراء طرد الموريسكوس، فأرسلوا شخصيات بارزة في سفارة لفليب الموريسكية، وقدموا عريضة تبين الاضرار التي ستصاب بها المصالح الوطنية، ويبينون له أيضا انه بالإمكان ادماجهم في النصرانية، وان عدم تشبثهم بالمسيحية كان ناتجا عن الإهمال بالتبشير، وان طرق التبشير كانت غير صالحة، فليس الموريسكوس وحدهم يجهلون الدين المسيحي،

1) Marcos de Guadalajara y Savier.

بل إن النصارى الأصليين الساكنين بالجبال من سلالة نصرانية يجهلون الدين أيضا، ولا يعرفون حقيقته مثل الموريسكوس، وهذا ناتج عن عقم طرق التبشير. لم تحظ هذه السفارة بجواب مرض ككل السفارات التي كانت تفد من باقي ممالك اسبانيا لهذا الغرض(1). فأصدر الأمر بتحصين الأراضي القريبة من المقاطعات المسكونة بالموريسكوس(2)، فلما رأوا ذلك ابتدأوا يبيعون أملاكهم ويغادرون أماكنهم حتى أوقفت حركة المرور بسبب تنفيذ أوامر الطرد».

كانت مملكة أراغون في عدد الموريسكوس بعد مملكة بلنسية، يعني أقل منها عددا، وكانوا مجدين في زراعتهم وصناعتهم، فكانت أرضهم في زراعتها وتقدمها لا تقل عن أرض بلنسية، ومن غير شك ان النصارى لما رأوا صدور أمر طرد الموريسكوس، ظنوا أن هؤلاء سيتهيأون للانتقام ويعرضون الوطن لثورات جديدة، لهذا بعث Agustin Mejia الذي تقدمت له أعمال في هذا الشأن، وله تجارب في هذا الباب، ذهب لأرغون وعزز المعاقل الحربية باللفيف الأجنبي، وجمع المراكب البحرية في مياه طرطوشة وعمل بشواطئ كاطالونيا وبلنسية كمائن للجيش، وقام بطرد أسر وعائلات بشكل فظيع لا ذنب لها إلا ان أفرادها يعادون النصارى ويريدون التشبث بدين آبائهم وأجدادهم، فلو تركوا على دينهم لبقوا معهم في أمن وسلام».

هيء كل شيء ولم يبق إلا صدور المرسوم المشؤوم كما صدر ببلنسية من قبل، وفعلا قرئ المرسوم الملكي بمدينة سرقسطة عاصمة مملكة أراغون يوم [illegible] ماي عام 1610، وكذا تليت قراءته في باقي مدن المملكة

1) Marcos de Guadalajara y Savier.

2) COLECCION DIPLOMATICA

المذكورة، وهكذا لم تجد نفعا شفاعة أحد عند الملك، فأعلموا بأن كل الموريسكوس الاراغونيين من رجال ونساء يستمرون قاطنين صحبة أولادهم في مدنهم وقراهم، ولا يسمح لهم بالتنقل، وإلا سيعاقبون عقابا صارما، إلى أن يأتي من سيتكلف بأمر إبحارهم من قبل الحكومة ليرافقهم إلى المكان الذي منه سيغادرون الوطن، ولا يسمح لأي نصراني قديم أن يخبئ عنده شيئا من حاجيات الموريسكوس، وكل موريسكي متزوج بنصرانية قديمة سيطرد، ويمكن لأي امرأة مع أولادها أن تبقى إذا أرادت، وكذا النصارى القدماء المتزوجين بموريسكية، اما من أتت منهن من المغرب للتنصر مع رفيقها، فيسمح لهم بالبقاء[1]، وكذا يسمح بالبقاء لمن تنصر وبرهن على حقيقة نصرانيته، وأخيرا يقول المرسوم :«إن نية صاحب الجلالة هي إخراجهم من المملكة، وليست نيته معاملتهم بسوء، ولهذا سيعاقب كل جندي أو بحري عامل الموريكوس بسوء، سواء معاملة مادية أو بالكلام أو بمد يده في ثروتهم[2].

لم يرض هذا أشراف ونبلاء أراغون وكاطالونيا، لأنهم فقدوا من أراضيهم اليد العاملة التي كانت تغدق عليهم الأموال بمعرفتها وكدها، وقلت ثروتهم ولم تفد توسلاتهم لدى أرباب الحل والعقد في إبقاء الموريسكوس باسبانيا، ورغم ما وعدهم به نواب الملك بأن يعارضوا في مسألة الطرد، فإنهم لم يوفوا بوعدهم، اما الموريسكوس فقد خضعوا للأمر الواقع، لأنهم لم يجدوا معينا ولا مغيثا، بل حتى الأشراف الذين كانوا بالأمس القريب يناصرونهم قلبوا لهم ظهر المجن ونفضوا أيديهم

1) حسبما يظهر أن بعض الموريسكوس كانوا لا يطيقون الإقامة في أرض غريبة عنهم فيفضلون الدخول في النصرانية محافظة على بقائهم في وطنهم الأصلي.

2) Bando de Expulsión de los Moriscos de Aragon.

منهم، فرأوا أنفسهم محاطين بالجيوش من كل النواحي من اسبان وغيرهم كاللفيف الأجنبي المكون من أهل نابوليس، ولمبارديا، وميليسيا بلنسية، والشواطئ محصنة بأسطول قوي، فالعدد الأكبر منهم خرج من الفاكس مؤلف من 9.965 شخص مارين على نبارا، ومن 12 إلى 14 ألف شخص خرجوا بطريق Puente De Conpranch، ومن الاذاية التي تحملها الموريسكوس أثناء الطرد انهم عند مرورهم بمقاطعة في طريقهم إلى الابعاد عن طونهم، كان حاكم المقاطعة يجبرهم على دفع ضريبة عن كل شخص، فكان منهم من يفرض على كل فرد ان يدفع عشرة بلايين، ومنهم من كان يبالغ في هذا فيجبرهم على دفع ضريبة ماء النهر التي يشربونه، وظل الشجرة التي تقيهم حر الشمس(1).

كان عدد موريسكو أراغون الذين طردوا أربعا وستين ألف شخص موزعين على الأماكن المختلفة، كل 13.890 شخص على حدة، وكانت تمنح لهم رخصة المرور Salvoconducto(2) للذهاب أينما أرادوا، ومنهم من توسط لهم مع حكام مقاطعات فرنسية للسماح لهم بالدخول الى فرنسا، فسمحوا لهم بذلك بعد ما أدوا دوكادو واحد عن كل شخص، وطلبوا من الفرنسيين الاذن بحمل السلاح، فأجابوهم بالموافقة بعدما أدوا المال في مقابل ذلك، غير انها كانت حيلة لابتزاز أموالهم، فلم تمر إلا مدة قصيرة حتى نزعوا منهم السلاح بدون أن يعوضهم عنه، وقد تفرقوا في أماكن متعددة بفرنسا(3).

إن موريسكيي أراغون لم يكونوا أحسن ممن سبقوهم في الخروج من

---

1) Marcos de Guadalajara y Savier.

2) Marcos de Guadalajara y Savier.

3) Marcos de Guadalajara y Savier.

مقاطعاتهم كموريسكي بلنسية، فقد كانت حالتهم يرثى لها من العري والجوع والبؤس والشقاء وقلوب حزينة وعيون باكية على فراق أوطانهم وذهابهم الى أراضي غريبة عنهم لا يدرون ماذا سيكون مصيرهم فيها.

وقد كتب نائب الملك على نبارا يطلب منه أن يترك الموريسكوس يعبرون الحدود والذين يحملون جوازا مسلما من قبل Agustin de Mejia دخلوا فرنسا كما قدمنا، بعدما أدوا دوكادو واحدا عن كل شخص ومنهم من يقول انهم دفعوا عشرة اسكودوا لكل واحد.

،بنفس الحال خرج موريسكو كاطالونيا في عدد خمسين ألف شخص مطرودين من قبل نائب الملك Duque de Monteleon فأعطاهم مهلة ثلاثة أيام، ثم منح الحرية للنصارى الأصليين بأن يقتلوهم وينهبونهم. ويفعلون بهم ما يشاؤون إذا هم بقوا بعد مرور هذا الاجل بدون ان يوخذوا أو يتابعوا على ذلك.

بعدما انتهى كل هذا ابتدأ Duque de Lerma بتهييء طرد موريسكي قشتالة والمانش وقسم من استريمادورا وينصح الملك بأن ينشر مرسوما في اخراج الموريسكوس، لئلا تحدث مشاكل جديدة(1).

لما رأى موريسكو المقاطعات التي ذكرناها آنفا ما حل باخوانهم، خافوا على أنفسهم من ان تدور عليهم الدائرة ويصل دورهم، فابتدأوا ببيع كل ما ممتلكاتهم بكل استعجال وبثمن بخس، وكان من النصارى من يغتنم هذه الفرصة ويشتري منهم كل شيء بدون أن ينصفهم في الثمن.

ولما علم الملك بما يقوم به الموريسكوس من بيع أملاكهم وأمتعتهم، أصدر مرسوما آخر يقول :«بما ان المرتدين يبيعون أملاكهم -ويفهم

1) Real Cedula del 11 de octubre de 1609.

من هذا انهم يريدون الخروج من اسبانيا- انه بإمكانهم ان يفعلوا ذلك، ثم بين المرسوم من سيقوم ويتكلف بوسائل الهجرة وقد خرج عن طريق برغوس 16713 شخص، وقد بيعت في الطريق كل حليهم من ذهب وفضة لانه لم يسمح لهم بحمل أي شيء من برغوس الى الحدود إلا بالضرورة من الطعام.

وقد وقعت عرقلة في الخروج من جانب مدجني وموريسكي غرناطة القاطنين بمقاطعتي قشتالة وقالوا بأنهم قديما اثناء التحرير لم يعارضوا ولم يقفوا حجر عثرة ضد ملوك اسبانيا. ولما وصل هذا الى علم الملك أصدر مرسوما آخر(1) ينص على طرد كل موريسكي من أي أصل كان، ويعم أيضا حتى من كان قد خرج من اسبانيا ورجع اليها ويسمح - بصفة استثنائية- للبعض ببيع أملاكهم، اما العموم فكل أملاكهم وأمتعتهم تصبح ملكا لصاحب الجلالة. ومرسوم آخر ينص على ترك حليهم أيضا من ذهب وفضة على من أرادوا ان يأخذوها معهم، وقد غادر الوطن منهم 11.317 شخص، زيادة على من مروا ببرغوس، وعشرة آلاف آخرين خرجوا من جهة قرطاجة ونزعت أملاكهم قهرا ولم يأخذوا إلا بعض أشياء أولية للصناعة والزراعة والتجارة، وكذلك خرج من مراسي الأندلس عدد كبير جدا، ولم يستطيعوا أن ينهوا الطرد في بحر سنتين، ويؤكدون ان العدد المطرود من مقاطعتي قشتالة يربو على مائة ألف شخص. وقد عومل هؤلاء البؤساء معاملة سيئة في الأراضي التي نزلوا بها، منهم من رجع الى اسبانيا، ومنهم من حاول السكن بشواطئها بصفة تاجر خاص بوسق الفواكه للشرق Levante (1) ولكنها كانت محاولة

---

1) Real Cedula del 14 de octubre de 1609.

فاشلة، فقد صدر مرسوم ملكي يوم 20 ابريل عام 1613 ينص على الطرد العام لكل من يوجد مختبئا في المملكة، وكان بعضهم محترما كالمدجنين لهم امتياز من جانب الملوك الكاثوليك، عددهم لا يزيد على ستة أو سبعة آلاف شخص. فهؤلاء بقوا لحضانة اليتامى تحت سلطة عائلة النصارى، منهم من دخل في الدين المسيحي ومنهم من اختبأ بالجبال وبعض بنات الموريسكوس تزوجن بنصارى قدماء، وهكذا بقي دم الاسلام يجري في عروق النصارى - كما يقول خانير - فلم يفد فيه شيء من قتل أو طرد أو غير ذلك.

ويقول خانير أيضا «إن من الموريسكوس من مات في المراكب عند ذهابه الى المغرب أو الجزائر أو إيطاليا أو تركيا، وانهم لم يجدوا من أحد صدرا رحبا، وقلبا رحيما بعدما طردوا من اسبانيا، فكان المغاربة يعتبرونهم مسلمين تنصروا، كانوا يعذبونهم ويقتلونهم، اما الذين ذهبوا الى فرنسا أو إيطاليا فكانوا ليسوا بأحسن حال ممن ذهبوا الى المغرب، الفرنسيين والايطاليين يذوقونهم أنواعا من العذاب حيث كانوا يعتبرونهم مسلمين، وكذلك في تركيا كانوا يلاقون نفس المعاملة التي يلاقونها بالمغرب، فكان قطاع الطرق يسلبونهم ويقتلونهم، وكانوا مبغوضين من المسلمين والنصارى واليهود، (على السواء) فلم يجدوا الرحمة إلا في قلب ولي تونس، ففي هذا البلد نزلوا أحسن وأفضل من أي مكان آخر، فمنهم من اشتغل بالقرصنة يغير ويهجم على شواطئ إيطاليا واسبانيا بالنهب والسرقة والقتل، وتأكيدا لهذا نقلنا من مخطوطة عربية بالمكتبة الكتانية بفاس في موضوع طرد الموريكوس

---

1) أظن شرق اسبانيا ما يدعى Levante.

من اسبانيا، وكاتب هذا المخطوط هو محمد بن عبد الرفيع ابن محمد الشريف الحسيني الجعفري المرسي الأندلسي، وقد كتب كتابه بدافع من أخيه في الله وصديقه الشريف أبو الحسن علي المدعو بالسراج نقيب الأشراف بتونس، والمخطوطة تتضمن النسب الشريف، وانتهى من كتابتها بتونس يوم الجمعة سادس شعبان عام أربعة وأربعين وألف، ونحن ننقل كلام المؤلف بنصه:

«قد كثر الإنكار علينا معشر أشراف الأندلس من كثير من اخواننا في الله بهذه الديار الافريقية من التونسيين وغيرهم حفظهم الله تعالى بقولهم، من أين لهم الشرف وقد كانوا ببلد الكفار دمرهم الله ولهم ميون من السنين كذا وكذا ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من الإسلام وقد اختلطوا مع النصارى... فأقول مع اني صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالإسلام. فقد اطلعني الله على دين الاسلام بواسطة والدي رحمة الله عليه وانا ابن ستة أعوام وأقل، مع اني كنت اذ ذاك أروح الى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجع الى بيتي فيعلمني والدي دين الإسلام فكنت أتعلم فيهما معا وسني حين حملت إلى مكتبتهم أربعة أعوام فأخذ والدي لوحا من عود الجوز كأني أنظر إليها مملسا من غير طفل ولا غيره فكتب لي فيه حروف الهجاء وهو يسألني حرفا حرفا عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا، فإذا سميت له حرفا عجميا كتب لي حرفا عربيا فيقول لي حينئذ هكذا حروفنا حتى استوفى لي جميع حروف الهجاء في كرتين فلما فرغ من الكرة الأولى أوصاني أن أكتم ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي وجميع قرابتنا وأمرني أن لا أخبر أحدا من الخلق ثم شدد علي الوصية وصار يرسل والدتي الي فتسألني ما الذي يعلمك والدك فأقول لها لا شيء فتقول اخبرني بذلك ولا تخف لأني

عندي الخبر بما يعلمك فأقول لها أبدا ما هو يعلمني شيئا وكذلك كان يفعل عمي وأنا أنكر أشد الإنكار ثم أروح الى مكتب النصارى وآتي الى الدار فيعلمني، الى أن مضت مدة فأرسل الي من اخوانه في الله الأصدقاء فسألني فلم اقر لأحد قط بشيء مع انه رحمه الله تعالى قد ألقى نفسه للهلاك لا مكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة لكن أيدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين، وقد كان والدي رحمه الله تعالى يلقنني حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتي للأصنام فأقرأ في نفسك سرا قوله تعالى «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له الى الطالب والمطلوب» وقل «يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون» إلى آخرها وغير ذلك من الآيات الكريمة، وقوله تعالى «وبكفرهم وقولهم على مريم الي وكان الله عزيزا حكيما» فلما تحقق والدي اني أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب أمرني أن أتكلم بإفشائه لوالدتي وعمي وبعض أصحابه الأصدقاء فقط وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون في أمر الدين وأنا أسمع، فلما رأى حزمي مع صغر سني فرح كثيرا وعرفني بأصدقائه وأحبائه وإخوانه في دين الإسلام فاجتمعت بهم واحدا واحدا وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيان وغرناطة والى قرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء أعادها الله تعالى للإسلام فتلخص من معرفتهم أني ميزت منهم سبعة رجال كانوا كلهم يحدثوني بأمور غرناطة وما كان بها في الإسلام حينئذ ولما أقوله بعد وقلته قبل فسندي عال لكون ما تم إلا واسطة واحدة بيني وبين امام الإسلام بها فباجتماعي بهم حصل لي خير كثير ولله المنة. وقد قرأوا كلهم رحمهم الله على شيخ من مشايخ غرناطة أعادها الله للإسلام يقال له

الفقيه اللوطوري رحمه الله تعالى ونفعنا به فإنه كان رجلا صالحا وليا لله فاضلا زاهدا ورعا عارفا سالكا ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهرة مأثورة قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الإسلام بغرناطة قبل استيلاء أعداء الدين عليها وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ اجلاء حسب الإمكان لأن الوقت ضاق في السر والإعلان لشدة القتال والحصر الذي كان عليهم مع صغر سنه ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا وقد أذن العدو في ركوب البحر والخروج منها لمن أراد، وبيع ما عند واتيانه لهذه الديار الإسلامية أبقاها الله تعالى عامرة بالإسلام الى يوم الدين وذلك في مدة ثلاثة أعوام ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل بعد شروط اشترطوها والزامات كتبها عدو الدين على أهل الإسلام فلما تحركوا لذلك أجدادنا وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بيتهم وجاز الى هذه الديار التونسية والحضرة الخضراء بغتة من جاء إليها حينئذ ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف بهذا الإسم، وذلك سنة اثنين وتسعمائة وكذلك للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها، ورأى العدو العزم فيهم لذلك نقض العهد فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر الى ديارهم ومنهم قهرا عن الخروج واللحوق باخوانهم وقرابتهم لديار الإسلام، وقد كان العدو يظهر شيئا ويفعل بهم آخر مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مرارا بملوك الاسلام كملك فاس ومصر حينئذ فلم يقع من أحدهما إلا بعض مراسلات ليقضي الله أمرا كان مفعولا. ثم بقي العدو يحتال بالكفر عليهم غضبا فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامي والجماعات والحمامات والمعاملات الإسلامية شيئا فشيئا مع شدة امتناعهم والقيام عليه فبقينا بين أظهرهم وعدو الدين يحرق

بالنار من لاحت عليه امارة الاسلام ويعذبه بأنواع العذاب فكم أحرقوا وكم عذبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم فانا لله وإنا إليه راجعون حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه وحرك القلوب للهروب وكان ذلك سنة عشرة وألف لهجرة صلى الله عليه وسلم فخرج منا بعض للمغرب وبعض للمشرق خفية مظهرا دين الكفار أبعدهم الله فخرج من أحبابنا واخواننا وهو الفقيه الاجل المدرس الشريف لامه أبو العباس أحمد الحنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ومعه أحد اخواله رحمه الله تعالى الى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية العظمى فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان احمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم فاخبراه بما حل باخواننا بالأندلس من الشدة بفرانسة وغيرها فكتب أمرا لصاحب فرانسة دمرها الله باعلام السلطان نصره الله يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس وخدام آل عثمان نصره الله ويوجههم إليه في سفن من عنده مع ما يحتاجون اليه، فلما قرئ الأمر السلطاني في ديوان الفرنسيين فسمعه من كان عنده مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء وهو اللعين فيليبو الثالث فأرسل لسيره وهو يخبره بالواقع وان السلطان احمد نجل آل عثمان أرسل أمره الى فرنسة وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس فقبل كلامه وأمر بإخراج المسلمين واذن لمن جاء من بالأندلس بأن لا بأس عليهم وان يركبوا عنده في سواحله مراكبه ويبلغهم الى حيث شاؤوا من بلاد المسلمين فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب اسبانية دخله الرعب والخوف الشديد وأمر حينئذ فجمع أكابر القسيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم الرأي وما يكون عليه العمل في شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة فبدأ

الشأن في أهل بلنسية فأخذا الرأي وأجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته واعطاهم السفن وكتب أوامر وشروطا في شأنهم وفي كيفية إخراجهم وشدد على عماله بالوصية وبالاستحفاظ على كافة المسلمين من بالأندلس، نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله في أوامره التي كتبها في شأن اخواننا بالأندلس حين أراد إخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من أمرهم وتعلم بعض الأسباب التي أخرجوا لأجلها على التحقيق لا كما يزعم بعض الحاسدين وليؤيد ما قدمناه آنفا من أمر السلطان أحمد المنصور بالله نجل آل عثمان نصرهم الله آمين وتكمل الفائدة وليلا يساو الظن بنا معشر الأندلس فأقول وبالله التوفيق.

قال الملك الكافر أبعده الله تعالى وزلزله آمين «لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجديدة موجبة لاخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية في مملكتها التي تعيش عيشا رغدا صالحا والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الأندلس الذي هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما بقينا مهم علينا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم أيامهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع فيما تقدم مثله من عدم توبتهم مما فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية وانه لم ينفع فيهم وصايا ورأينا عيانا أن كثيرا منهم قد أحرقوا بالنار لاستمرارهم على دين المسلمين وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني ينصرهم علينا وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات اسلامية ومعاملات دينية وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة

وصلت الي ومع هذا ان أحدا منهم لم يأت ليخبرنا بما هم يدبرونه في هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم علمت بذلك ان كلهم قد اتفقوا على رأي واحد ودين واحد ونيتهم واحدة وظهر لي أيضا ولأرباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت معهم ان من أبقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير وهول شديد بسلطاتنا وان بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشئ من ابقائهم بمملكتي أردت إخراجهم كافة من سلطتنا جملة ليزول بذلك الكدر الواقع والمتوقع للنصارى الذين هم رعيتنا طائعين المسلمين كله ثم دخل عليه الملك ليلا فقال له من الذي أدخلك السجن فقال مولايْ ومن الذي قيدك وغللك فقال مولاي ونظر إلى القيد والجامعة بين يديه فقال له الملك ولم ابقاك في السجن فقال له لامر أراده فقال الملك أنا أقول أشهد أن لا إلاه إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فأصبح أهل المدينة كلهم يقولون أشهد أن لا إلاه إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقال الشاب للملك حينئذ انما أبقاني في السجن لأجل هذا انتهى. ولا ريب أن هذا من كرامة النبي صلى الله عليه وسلم الذي أكرمه الله سبحانه بمثل ما أكرم به كافة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما أحسن قول الامام البصيري رحمه الله تعالى:

تتباهى بك العصور وتسمو * بك علياء بعدها علياء**

فلا شك أن جملة أعمار الدنيا من أولها الى آخرها تتباهى به صلى الله عليه وسلم وبأمته ... الخ.

نعم سقت هذا الكلام السابق استطرادا لأحتج به وبالذي يأتي على الذين أنكروا على من ظهر شرفه منا معشر الأندلس وأعني بالكلام السابق تعيين بعض من جاء الى المغرب من الأشراف وكذلك من جاء الى

الجزيرة الخضراء أيام الفتح وبعده مسترسلا في مبين من السنين من أنه لا يحتاج الى دليل على ذلك وقد وقع الفتح لجزيرة الأندلس الخضراء وهكذا أسماها النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحاديث الشريفة وسمعت بعضها من شيخنا الأستاذ رحمه الله وبشرنا بها وصنع لنا ضيافة كبيرة عظيمة بأنواع الأطعمة النفيسة وجمعنا عليها قرب قدومنا الى هذه الديار العلية ثم بعد الأكل قال لنا أتعرفون يا معشر اخواننا من الأندلس لماذا فعلت بكم ما رأيتم اليوم من الاطعام والفرح، قالوا لا، فقال فعلت هذا سرورا وفرحا لكم لأنه بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم. توجه نحو الجزيرة الخضراء فسلم عليكم صلى الله عليه وسلم وأنتم في أصلا بأجدادكم وأخبر بالجزيرة الخضراء وبما كان فيها من الجهاد والفتح والإسلام فهنيئا لكم ثلاث مرات انتهى كلام المخطوطة بنصه.

ومما يقال أيضا عن طرد المسلمين، انه كان أول من يخرج المذبذبون في الدين وآخرهم العلماء والمسلمون الحقيقيون.

العواقب الـي نتجت عن طـرد الموريسكوس في الميـدانـين : الاقتصـادي والسيـاسي

يقول المؤرخون «ان الأرض الإسبانية كانت في غاية ما يكون من الازدهار من ناحية الفن والزراعة والتجارة والصناعة وغير ذلك منذ انتهى ملك كارلوس الخامس فكانت مقاطعة استوريـاس وبسكونكادا خضراء يانعة تمرح فيها الماشية، وكان يكثر في أراغون والقشتالين أجود زراعة الحب، واما الأندلس فحدث عنها ولا حرج، وأما شواطئ الأنهر مثل الوادي الكبير وغيره تنتج من الفواكه ما لا يوصف، بينما كانت كاطالونيا تخرج من مصانعها الشيء الكثير، فالزيت والنبيذ كانا فوق الحاجة واما العسل والقطن وغيره لا توصف كثرته، فكانت منتوجات اسبانيا تصدر للخارج بواسطة المراسي التي تحيط بشبه الجزيرة وبواسطة بعض الأنهر الصالحة للملاحة لداخل اسبانيا (كان الوادي الكبير صالحا للملاحة إلى قرطبة، اما الآن فإلى اشبيلية فقط). كانت نواحي غرناطة توزع فيها المياه بشكل هندسي عجيب، فتروي الأرض وتجعلها صالحة للزراعة، وكان يشمل التوزيع كل تلك الناحية الى أعالي جبال البوشارات. كل هذا يرجع الفضل فيه إلى السلالة العربية، فكنت ترى في أعالي قمم الجبال العنب والزيتون، ونفس الشيء كنت تراه أيضا في بعض النقط من كاطالونيا وبلنسية، فكانوا لا يتركون قطعة أرض الا ويغتنمونها للفلاحة أو غير ذلك، بل يتسلقون أراضي وعرة في الجبال فيحرثونها ويجعلونها منتجة ومفيدة، فإذا كانت في حاجة الى الماء يجلبونه بأية وسيلة كانت، حتى يجعلونها صالحة للإنتاج

ما يدلك على كدهم ونشاطهم في هذا الباب، فقد تفننوا في هندسة المياه وتوزيعها بشكل أدهش مهندسي عصرنا الحالي، وما زلنا نشاهد لحد الآن آثار ذلك بغرناطة وتطوان، اما ري الحقول فما زال على الطُريقة الإسلامية القديمة ببلنسية، وكثير من أسماء أدوات الزراعة والفلاحة عربية. ويكفي أن نرى في تلك الحقبة منتوجات اسبانيا تزيد عن حاجتها فتصدر للخارج «اما الصناعة فكان لهم فيها الباع الطويل، فصناعة الجلد والملف والحرير كانت تزخر بها أسواق طليطلة وكوينكا، سيوداد ريال، سيكوفيا، غرناطة، قرطبة، اشبيلية بايثا، وكذا أمكنة أخرى مثل آفلا مدينة الكامبو، فكانت هذه المدن تمون بمنتوجاتها كل أسواق أوربا تقريبا، فكانت برشلونة تبعث بحريرياتها الى صقلية بل حتى إلى مصر، وكانت ترسل في مراكبهم البحرية الخاصة، وكذا كان يصدر الزرع والملح والنبيذ والأبازير والخشب والحديد والقصدير والرصاص الى دول أجنبية وخاصة من الشواطئ الشرقية، أما كوينكا وقرطبة فكانتا تصدران الملف والحرير المصنوع والغير المصنوع، وكذا كان يصدر ويصدر بغرناطة الورق وبطليطة. كانت صناعة الجلد المطروز بالحرير والذهب والفضة بلغ غايته في الإتقان، وكان يصدر من ميناء بلنسية ولشبونة الابازير بأنواعها، وكانت حدائق برغوس وبلد الوليد ومدينة الكامبو وريوسيكو مدنا خاصة بالمعارض والأسواق للمنتوجات كلها، فكانت المعاملة فيها بالنقود وقطع الذهب والفضة وقسم كبير من الحوالات، ويقال بأنه قد وصل ما روج في بعض المعارض من الأموال ما قدره 530 ألف مليون مرابيديس Moravedises فلم تكن هذه المعارض لاسبانيا فقط بل كانت دولية، فكنت تجد فيها السلاهيم والبسط وبعض منتوجات من سوريا والمغرب، وكانت تأتي أيضا من فرنسا أشياء خاصة

بالخياطة، والورق من فلاندس، ويقول بعض المؤرخين :«ان معرض مدينة الكامبو كانت له شهرة عالمية وكان يعقد مرتين في السنة.

كانت بحرية اسبانيا تحمل منتوجاتها ومصنوعاتها لكل أقطار العالم، فكانت تسوق منتوجات اسبانيا من مراسي كاطالونيا وبلنسية ومالقة، واشبيلية وقادس الى كل من ايطاليا وافريقيا بل الى بلاد الهند الشرقية فكان التجار الاسبان يقصدون كل أسواق العالم، كانت أسواق المكسيك والبيرو ولشبونة والمغرب وفيينا وجنوة وفلورنسا ونابوليس وسيلانو الى روما كلها مملوءة بالتجار الاسبان يعرضون منتوجات بلادهم، فكانت دار العملة باشبيلية لها شهرة وصيت، كان بها 180 عاملا لصك العملة. فكنت ترى في كل ساعة تخرج منها القوارب المملوءة بالذهب والفضة كأنها سلعة من السلع العادية وكان بها ديوانتين، إحداهما لجباية حق الملك، والثانية لجباية ما يأتي من أمريكا، فكان يخرج من هذه المدينة أي اشبيلية أكثر من مائة مركب لأمريكا حاملة كل أنواع السلع والبضائع وأغلبها كان يرجع موسوقا بالذهب والفضة وأشياء أخرى، ويقول المؤرخون «هكذا كان الحال في اسبانيا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ولكن بطرد الموريسكوس تبدلت الأشياء وأصبحت الحالة يرثى لها، وقد كان المكان الأول الذي ظهر فيه تأثير طرد الموريسكوس هي مملكة غرناطة حينما طرد ما بقي هناك منهم والذين تخلفوا ـ وهم أقلية ـ من الحروب المدنية والثورات الداخلية والاضطهادات في عام 1570م، وقد اعترف تقريبا في تلك الأثناء نفس المسؤولين بخطئهم والذين كان على يدهم طرد الموريسكوس، ويقول مؤرخو الأندلس «لم يستطيعوا تعويض الخسارة التي نتجت عن طرد 400ألف موريسكي فبقيت الفلاحة والتجارة في مملكة غرناطة جامدة بخروجهم

بعدما كانت مزدهرة رغم الحروب المتقدمة، وبإبعادهم بقيت خالية400 أمكنة وغير مخدومة ولا تنتج شيئا، ولأجل ترميم ذلك وتعويض ما لحق اسبانيا من الخسارات بسبب طرد الموريسكوس أتوا بأسر تعمر ما خلا من الموريسكوس، فأتوا بعائلات من غليسيا واستورياس وجبال برگوس وليون وتجنيد معمرين واعطائهم الأدوات والبذور اللازمة للفلاحة والصناعة بكثرة، ولاتقاء الخلاف بينهم حددوا لكل واحد أرضه وقسطوا الماء عليهم مبينين لكل واحد حقه، وأعطوا لكل واحد رسم الملكية، غير ان هذه الطريقة لم تجد نفعا، فأغلبهم كان يعيش بأرضه عيشة هادئة مريحة، فلم يستطيعوا إنجاز أي عمل، فمنهم من تنازل عن أرضه ومنهم من قبل قسما، ومنهم من هرب وصار من قطاع الطرق، وعبثا استطاعوا جمع 12542 أسرة فأسكنوهم في 270 أمكنة، ولكن هذا العدد نقص منه نحو 400 وهو العدد الذي كان يوجد أيام المسلمين، فيفهم من هذا ان هاته الأسر الجديدة لم يرقها هذا النوع من العمل الذي أوتي بها من أجله والأرض الغريبة التي أرغمت على الإقامة بها رغم المساعدات والاغراءات المتعددة والمتنوعة فعادت من حيث أتت.

كان من الصعب أن يوجد معمرون مثل الموريسكوس الذين كانت أرض المملكة بهم زاهرة، فالنصارى لم يكونوا يحسنون الفلاحة ولا لهم قدرة على العمل، ويقول سكرتير فيليب الثاني Francisco Idiagnes لم يكن يوجد ركن أو قطعة أرض بدون ان تزرع او تخدم، فبهذا كنت تجد الخيرات بكثرة في الأرض بسبب كدهم واتقانهم للعمل وقلة أكلهم (1) وكان هذا يسبب انخفاض في الأسعار والرخاء في الأشياء،

---

1) فلم يكونوا مسرفين في الأكل، كانوا مقتصدين يشبهون في هذا بعض الدول الاسيوية كاليابان، يتناولون حفنة أرز ويشتغلون كثيرا، فالبطن تتطلب قليلا واليد تنتج كثيرا، وبهذا تكون اليد العاملة رخيصة لأن العامل لا يطلب إلا الضروريات من العيش.

وقد شهد لهم بهذا مؤرخو عصرهم من نفس رجال الدين، يقول الأب كرمات. ان الموريسكوس كانوا فلاحين ومزارعين أكثر من غيرهم في شبه الجزيرة، ويقول فراي بدرو ذي سان تشيليو «كانوا أعداء المجتمع لكنهم كانوا مكدين ومثابرين على العمل» ويقول «فعلى منهاجهم كانوا يجبرون النصارى القدماء بأن يخدموا الأرض التي ورثوها كان الموريسكوس يسكنون منعزلين عن النصارى القدماء -كما قدمنا- في احياء خاصة بهم أو قرى» اللهم إلا القسيس الذي كان يقوم بشؤون التعليم والتبشير بالنصرانية ويدير شؤون الكنيسة، ولقد بعث أحد الاقتصاديين في نفس الوقت من رجال الدين تقريرا للملك في عام 1597 يقول فيه عن الموريسكوس «رغم كوني حاميا للمهنة المقدسة أظن أنه لا يسمح بطرد الموريسكوس من اسبانيا بأية طريقة» ولكن لمصلحة الدين والسلم الداخلي - كما يقولون - لم نراع مصلحة الفن والتجارة والزراعة وغيرها من المصالح التي كانت مزدهرة بهم وبازدهارها كانت اسبانيا أرقى دولة في العالم، وبمرسوم فيليب الثالث خرج عدد كبير من الصناع والزراع الذين ذهب بذهابهم فن الصناعة والتجارة والزراعة، ويقول كامبو مانيس الشهير ان نقطتي الانحلال والانحطاط في اقتصادنا يمكن تحديدها في عام 1609 عندما ابتدأ طرد الموريسكوس، وكذلك ابتدأ هبوط الصناعة ثم يقول: «ان الغلط الذي ارتكبه ساستنا في القرن السابع عشر من اجل مسائل أخرى أيضا لحد الآن لم تستطع الدولة اجباره، فالاسبان قد ارتكبوا غلطتين كانا السبب في انحطاطهم عند طرد الموريسكوس، الغلط الأول انهم لم يختلطوا بالموريسكوس بصفتهم مستعمرين، والثاني انهم لم يشتغلوا ويتعلموا منهم، لان هذا يضطرهم الى الاحتكاك بهم وهذا لا يريدونه، ويقول La Frente ان زراعة

السكر والقطن والحب كان الموريسكوس متفوقين فيها ويرجع هذا الى معرفتهم واتقانهم في الري بواسطة السواقي والقنوات وتوزيع المياه وحركاته بهندسة عجيبة مما جعل أراضي بلنسية وغرناطة خصبة، اما صناعة الحرير والملف والورق بأنواعه فكانوا متفوقين فيه، فالصناعة الميكانيكية أيضا كانوا لا يزاحمون فيها، ولو ان النصارى كانوا يقبلون عليها، كل هذه الاشياء سقطت بعد خروجهم، ولوحظت حاجة الدولة اليهم، وحسبما اسفرت عليه الدراسات في هذا الباب فقد وصل عدد من فقدتهم الفنون والصناعة والزراعة والتجارة وغيرها الى مليون شخص (وكان عدد سكان اسبانيا اذ ذاك نحو ثمانية ملايين) ثم ان هناك خسارة أخرى أصابت الدولة وهي تركهم عملة مصطنعة في كل الدولة فأصيبت اسبانيا بخسارة لم يمكنها تعويضها إلا بعد سنين عديدة.

ويقول بعض المؤرخين: كان من واجب الاسبان ان يقبلوا على تعليم ما خلفه الموريسكوس ولكنهم لم يفعلوا، فتركوه للأجانب وقد أقبل كثير منهم من الخارج مغتنمين قانونا أصدره فيليب الرابع في عام 1623 يمنح بمقتضاه كل الأجانب الخبراء بفن الزراعة وغيره بالدخول الى اسبانيا، ولكن كل شيء كان عبثا حسب قول كامبو مانس، فالحروب التي أتت على ثروتنا كانت السبب في عدم استفادتنا من المعمرين الجدد كما كان منتظرا ويقول مؤرخ «ان العربية السعدية أصبحت عربية صحراء (يقصد بلنسية على الخصوص) تلك البقعة اليانعة في اسبانيا تحولت الى أرض جوداء يابسة ومظلمة» وقد خيم الجوع في وقت سريع، اما الازدهار والنشاط اللذان كانا يغمران المدن والقرى فقد تحول فيها الى البؤس بسبب خلوها من سكناها وأصبح قطاع الطرق يلتجئون الى الاحتماء بالدور البلاقع، وقد ورث أناس من الأشراف ثروة عظيمة من

الموريسكوس، ولكنهم في آخر الأمر وصلت بهم الفاقة الى أن صاروا يطلبون من الحكومة أن تدفع لهم ما يعيشون به من سكن وأكل» وكان الوحيد الذي خرج رابحا هو الدوكي دي ليرما وعائلته فملكوا كما هائلا من المنتوجات ودور الموريسكوس يقدر بخمس ملايين ونصف راليس، فعلى كل حال كان طرد الموريسكوس خسارة على اسبانيا ويشهد بهذا بعض الأجانب من رجال الدين كالكاردينال ذي ريشيليار Rechellar الذي يقول « ان الصدمة التي صدمت بها ثروة اسبانيا كانت عظيمة ولم تجبر ».

ان الطرد النهائي للمويسكوس من عام 1609 إلى 1614 أنتج عواقب وخيمة على الدولة كما ذكرنا، وزاد ان خلت كثير من البقاع من سكانها فقل عدد سكان اسبانيا، ومما زاد الطين بلة كثرة الحروب الداخلية بين الاسبان أنفسهم، ثم حروب اسبانيا الخارجية سواء في افريقيا أو أوربا أو جزر البحر الابيض المتوسط أو احتلال أراضي أمريكا ثم الأمراض والأوبئة التي عم انتشارها في تلك السنين، كل هذا قلل من سكان البلاد وأتى بنقمة على الأمة ظاهرها وباطنها العذاب(1).

ويقال انه سجلت بين النصارى والمسلمين أكثر من 500 معركة، فالنتيجة الوحيدة التي أحرزت عليها اسبانيا بطردها للموريسكوس هو توحيد الدين في الدولة وضمان السلم الداخلي المهدد بهم، فكانوا على الدوام يتعاملون مع المغاربة والأتراك ويهددون الدولة في سيادتها بل

1) Maestro Lafrente : Historia General de España.

كانوا يتعاملون حتى مع الفرنسيين والانكليز كما قدمنا.

هكذا انتهى وجود هذه الجماعة من أديم شبه جزيرة إيبيريا بعدما غمرتها قرونا طوالا قدمت أثناءها خدمات جليلة للإسلام بل للإنسانية جمعاء ولازال أثرها باديا للعيان لحد الآن، وقد حدثني بعض الاطباء الاسبان انهم كانوا يتلقون في المدرج الجامعي بكلية الطب من أساتذتهم فوائد جمة ويستشهدون بكلام أطباء العرب الأندلسيين حتى عصرنا هذا.

إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، **صدق الله العظيم**.

ننقل هنا هذا المخطوط الموجود في الفاتيكان منقول من كتاب يتضمن رسالة موجهة من أحمد بوجمعة المغراوي الى الموريسكوس يحظهم فيها على التمسك بالدين وهذا نصها:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

اخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر من أجزل الله ثوابه فيما لقوا في ذاته وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته الغرباء ان شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وان بلغت النفوس الى التراق نسأل الله ان يلطف بنا وان يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق وان يجعل لنا ولكم من الأمور خرجا ومن كل ضيق مخرجا، بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم الى عفوه ومن يده عبيد الله تعالى احمد بن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه وستره سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن أخاتمه والنجاة من أهوال هذه الدار والحسر مع الذين أنعم الله عليهم. من الابرار ومؤكدا عليكم في ملازمة دين الإسلام، أمرين به من بلغ من أولادكم ان لم تخافوا دخول شر عليكم من أعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون اذا فسد الناس، وان ذكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا ان الأصنام خشب منجور وحجر جامد لا يضر ولا ينفع وان الملك ملك الله، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلاه، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيمان، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى

قلوبكم، الغسل من الجنابة ولو عوما في البحور، وان منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدي للحيطان، فان لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد، إلا انه يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي، والوجه الى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوه بالإيماء نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله عليه السلام فأتوا منه ما استطعتم، وان أكرهوكم في وقت صلاة الى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فاحرموا بالنية وأتوا صلاتكم المشروعة واشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله وان كان لغير القبلة فتسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وان أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وان كلفوا عليكم خنزير فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه، وكذا ان أكرهوكم على محرم، وان زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل كتاب، وان أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وانكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه، وكذا ان أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوه منكرين بقلوبكم ثم ليس لكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقي ان تبتم لله تعالى، وان أكرهوكم على كلمة الكفر فان أمكنكم التورية والألغاز فافعلوا وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان ان نطقتم بها ناكرين لذلك وان قالوا اشتموا محمد فانهم يقولون له ممد فاشتموا ممد ناوين انه الشيطان أو ممد اليهود فكثير منهم اسمه، وان قالوا قولوا عيسى ابن الله فقولوها ان أكرهوكم وانووا إسقاط مضاف أي عبد إلاه مريم معبود بحق، وان قالوا المسيح ابن الله فقولوها اكراها وانووا بالإضافة للملك لبيت الله لا يلزم انه يسكنه أو يحل به، وان قالوا قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير

ابن عمها الذي تزوجها في بني اسرائيل ثم فارقها قبل البناء قاله السهيلي في تفسيره المبهم من الرجال في القرآن أو زوجها الله منه بقضائه وقدره، وان قالوا عيسى توفي بالصليب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه وأمانته وصلبه وإنشاد ذكره واظهار الثناء عليه بين الناس وانه استوفاه الله برفعه الى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم ان شاء الله على حسب ما تكتبون به وانا أسأل الله ان يدير الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وحلة بل بصدمة الترك الكرام ونحن نشهد لكم بين يدي الله انكم صدقتم الله ورضيتم به ولابد من جوابكم والسلام على جميعكم بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة عرف الله خيره.

يصل الى الغرباء إن شاء الله تعالى.

المـــراجـــع

1 - Colección Diplómatica.

2 - Vida religiosa de los Moriscos (P. Pedro Longas).

3 - Manuel Carvajal.

4 - Gayangos (Vida de los Moriscos).

5 - Colección (Autores Españoles).

6 - Portfolio (Historia de España) Manuel Sandoval Del Rio.

1 ـ وثائق بالخزانة الكتانية بفاس.

2 ـ الأدب الأندلسي، لأحمد بلافريج وعبد الجليل خليفة.

3 ـ من كتاب "محضر" للمؤتمر الأول للدراسات العربية الإسلامية بقرطبة.

فهـــرس الكتـاب

مع تحيات إخوانكم في

منتديات أهل الحديث في تطوان

الصفحة



محمد قشتيليو

- من مواليد 9 نوفمبر 1919 بمدينة القصر الكبير.
- حفظ القرآن الكريم مع بعض المتون بنفس المدينة.
- في عام 1937 انتقل الى تطوان والتحق بالمعهد الحر الثانوي.
- حاصل على دبلوم مدرسة المعلمين بتطوان.
- في عام 1940 عين مدرسا مشرفا على البعثة الطلابية المغربية بمدريد المرافقة لمولاي المهدي نجل خليفة السلطان بشمال المملكة آنذاك.
- عمل أستاذا للغة العربية بكلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد المركزية لمدة عشر سنوات.
- باحث في التراث العربي الأندلسي بمكتبات اسبانيا بتعيين من الدوائر الرسمية الثقافية بتطوان. نشر عدة مقالات في الموضوع في عدة صحف ومجلات.
- عند استقلال المغرب عين قائدا لقبيلة بني سعيد بعمالة تطوان.
- في سنة 1958 التحق بوزارة الشؤون الخارجية.
- في سنة 1959 عين قنصلا للمغرب بمدينة الجزيرة الخضراء.
- في سنة 1960 عين قنصلا للمغرب بمدريد.
- في سنة 1965 عين قنصلا بمدينة سيدي بلعباس بالجزائر.
- في سنة 1967 عين مكلفا بالشؤون القنصلية بسفارة المغرب بالمملكة العربية السعودية.
- في سنة 1968 حصل على وسام الرضى من الدرجة الأولى.
- في سنة 1969 عين سكرتيرا بسفارة المغرب بالبرازيل ثم قائما بالأعمال بنفس السفارة. وفي سنة 1974 عين مستشارا بسفارة المغرب بالبرتغال.
- وفي سنة 1989 صدر للمؤلف كتاب "تأثير الفن العربي المدجن في حياة الإسبان".
- للمؤلف أبحاث أخرى تحت الطبع.

مطابع الشويخ «ديسبريس» ـ الهاتف: 09 50 96 (09). تطوان